الحوار في القرآن والسنة
الأسس والمنطلقات

د. أسعد السحمراني
أستاذ العقائد و الأديان
في جامعة الإمام الأوزاعي

لماذا الحوار؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد حصلت قفزات سريعة في عالم الاتصال بفعل التقدم التقني، وقد فرض ذلك قدراً من الانفتاح، والتواصل بين الأمم والمجتمعات لم تعهده البشرية من قبل، كما أن تطور وسائل الاتصال فرض تحديات فكرية وقيمية تحتاج لأنماط من الاستجابات؛ مما يثمر مسارات حضارية غير مسبوقة، وقد برزت عناوين لم تكن معهودة مثل: " صدام الحضارات " ، و " الفوضى " ، و " نهاية التاريخ " ... الخ.

إن الواقع المحيط بالعلاقات بين الأمم والشعوب تغشاه حالات من التوتر تسببها حالات التجاوز والتطاول، أو ما حصل وما يحصل باستمرار من أشكال العدوان والظلم الذي وصل بعضه إلى حد احتلال أرض، أو استباحة حرمات، أو طرد مواطنين من ديارهم، أو نهب ثروات، أو نشر قواعد عسكرية توزع الرعب في كل الاتجاهات.

أما على الصعيد الديني والأخلاقي فقد عمدت مدارس تخريبية إلى نشر المفاسد والرذائل باسم الحرية الفردية، وحقوق الإنسان، وهي في جوهرها قضاء على إنسانية الإنسان.

بقي في الأمر شأن يختص بالإسلام والمسلمين هو ذلك الانفلات الغربي في توزيع التهم ؛ مثل الإرهاب، والأصولية، ومعاداة حقوق الإنسان، وغير

ذلك مما اتخذه - من ينتطحون لقيادة العالم - ذريعة للغزو والتدمير والتهجير وإهلاك الحرث والنسل.

وقد تولدت إشكالية من ذلك؛ حيث تسابق أفراد ومؤسسات من المسلمين والعرب لطلب براءات ذمّة، أو إظهار حسن نوايا، أو تقديم مبررات مفادها : إن العرب والمسلمين دعاة حوار.

إلا أن الناتج كان في غير المقاصد المرجوة من الحوار؛ حيث تعددت الرؤى إفراطاً وتفريطاً، وتشابكت المفاهيم مما لم يجعل للحوار شاطئاً ترسو سفينته عليه.

تأسيساً على ما تقدم من إشكاليات يكون التأصيل للحوار- إسلامياً - ضرورة من أجل الوصول بالحوار إلى برّ الأمان، والتأصيل الإسلامي أساسه القرآن الكريم، والسّنّة النبوية الشريفة، وهذا ما سيكون موضوع هذا البحث - بعونه تعالى -.

هل يمكن أن يقوم حوار بين الأديان والحضارات؟

إن الهجمة على مسألة الحوار خلال المؤتمرات، والندوات، والمؤلفات، والمقالات، والخطب، والبرامج الإعلامية أوصلت إلى خلط في المفاهيم، ولا يخفى على الباحث الدقيق، وعلى ذي النظر العقلي الرشيد ضرورة التحديد الدقيق للمصطلحات، والتعريف السليم للمفاهيم؛ كي لا تذهب الأمور إلى غير الغايات المرسومة، والآمال المرجوة.

إن الحوار لا يكون بين الأديان ؛ لأن دين الله تعالى واحد، وعماده عقيدة التوحيد، وبها بشّر كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأساس اللقاء بين المؤمنين برسالات السماء الكلمة السواء، وهي عبادة الله تعالى، وأن لا يتخذ المؤمن أحداً في موقع الربوبية دون الله تعالى.

لكن مفهوم التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشبيه، وعن الأنداد يختلف فيه الناس، وأما أتباع الفلسفات، والنظريات التي صاغها البشر، وأطلقوا عليها اسم أديان، فلكل واحد منها معتقده، ومنظومته الطقسية، وشعائره لذلك لا مكان لشيء اسمه حوار الأديان، وإنما الصحيح أن يُقال: حوار أتباع الديانات.

وهذا الحوار ينطلق من قاعدة مفادها أن الناس متنوعون في عقائدهم، ومفاهيمهم، وقدراتهم، وذكائهم، والحوار يؤسس- إن قام على أسس صحيحة - للتلاقي والتعاون من أجل الخير العام، والوصول إلى ذلك يكون حال التعارف بين الأطراف والمجموعات من الموقع الإيجابي، وهذا ما وجه إليه الإسلام في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

فحوار أتباع الأديان، ومعتنقي الرسالات يكون مبنياً على العلم، وبغرض التعاون، ولا يكون الحوار ممن يجهل الآخر، أو يرفض التعارف.

أما حوار الحضارات - أو قل تلاقي الحضارات - فهو الأصل، وما طرحه بعضهم بخلفية امبراطورية تنوي التسلط باسم العولمة تحت عنوان: "صدام الحضارات" فهو ضد طبيعة الأشياء. والسبب هو ذلك الخلط بين الثقافة والحضارة.

فالثقافة "أمر ينطلق من ذات الإنسان، ويحمل معنى التقويم والتنقية رقيّاً بهذه الذات باتجاه معاني الخير والحق والعدل والجمال، وسائر القيم.

والثقافة في جوهرها عملية إطلاق للطاقات باتجاه توليد وعي جماعي يشكّل الهوية التي تقود وتطبع الحضارة بطابعها، وهي عندنا العقيدة والنظرة إلى الكون، ومجمل المباديء والأسس والقيم التي نؤمن بها ونلتزمها ونعمل على تطبيقها، وهي كل ما يميّز شخصية الأمة من لغة وفكر وفنون وعلوم وتقاليد وأعراف... الخ.

إن أبناء الأمة لا يكونون في موقع تحديد هويتهم إن لم يلتزموا ثقافتهم وخصائصها، لأن الثقافة هي التي تقود الحركة الحضارية للأمة وتوجهها وتضبطها، وبالتالي هي التي تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي، في مقابل المدنية التي تتجه - غالباً - إلى حركة الإبداع التقني والمادي."(١)

(١) السحمراني، أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، ص ٨٢،٨٣ .

وأبرز مقومات ثقافة المسلمين بمختلف دوائرهم القومية: العربية والأعجمية، الإيمان الديني، والانطلاق من أن الإنسان هو المحور الرئيسي في حركة الحضارة، والاتجاه إلى الروح الجماعية بعيداً عن الأنانية وطغيان الفردية كما هو حال الليبرالية، هذا إضافة إلى إعلاء شأن القيم التي تتسامى بالفرد فوق علائق المادة ومفاعيل الغرائز مما يحقق شخصية سوية متوازنة مادياً وروحياً، ومعنوياً واجتماعياً؛ بحيث لا يكون فيها مكان للإفراط أو التفريط.

إن حضارة تقوم دورتها في حضن شخصية ثقافية إسلامية تختلف عن مسار حضاري ينشأ في رحم ثقافة لها مقومات أخرى، وإذا كانت الحضارة منجزات ومنتجات وابتكارات واكتشافات فإنها مؤجلة للانتقال وتتسم بالعمومية، والجاهزية للتطوير والنمو، والتبدّل، وهي تقوم على التراكم والتكديس، وإذا كانت الثقافة خصوصية فهي لا تغادر ثوابتها، وإن غادرت شواطيء ثوابتها فلا تلبث أن تلتصق بها، بينما الحضارة لا تستقر عند نقطة، بل هي في مسار تقدمي، والشعوب أياً كانت هويتها الثقافية لها حق الاستفادة من تجلياتها مع شرط أساسي هو أن تخضع عند الانتقال، وحين الاستخدام لقيم ثقافة الأمة التي باتت في ربوعها، ولا يصح أن يستورد أحد المنتج الحضاري مشحوناً بقيم وافدة فعندها يكون الأمر غزواً يهدد الهوية.

تأسيساً على ما تقدم يكون التنازع والتباين والاختلاف، وقل الصدام خاصاً بالثقافات، أما الحضارات فشأنها التبادل والانتقال، ولا مكان فيها للصدام كما زعم بعض المعاصرين من دعاة العولمة، وتنميط العالم كله وفق نمط ادعوا أنه الوحيد القابل للاستمرار والحياة.

إن هذه النتيجة تقود إلى القول: إن حوار الحضارات أمر مشروع وضروري، وكذلك التبادل الحضاري القائم على الانفتاح والتسامح، وانتقال المنافع إلى حيث الحاجة، كل ذلك ضروري ولا مناص منه.

وقفة مع المصطلح (الحوار - الجدل - المناظرة):

لا يخفى على أحد من أهل الدراية أهمية ضبط المصطلح، وتحديد المفاهيم، ويلاحظ المتابع أن اللبس الذي يحيط بالمصطلح أو بالمفهوم يقود غالباً إلى تشويش وتشتت في الفكر، وينتج عن ذلك سلبيات لها مردود غير حميد. وإذا كان أمر التواصل بين المسلمين وغيرهم مهماً؛ فإن ضبط المصطلحات المتعلقة بهذا الاتصال والتواصل يكون من المقدمات التي تؤصل لهذه الفعالية.

إن التواصل ضروري بين الناس على تنوع عقائدهم، وتعدد أفكارهم، وتقارب قيمهم أو تباعدها، يضاف إلى ذلك ما يقوم من تنوع في اللغة والثقافة والميول والمقاصد، وهذا التنوع آية ربانية حيث الناس من أصل واحد، وقد توزعوا فأصبح الاختلاف واقعاً.

لكن العيش الكريم الذي يؤمِّن سعادة الإنسان المستخلف في الأرض يحتاج إلى مواقع للقاء وفق أسس وقواعد، ولا يكون ذلك بغير حوار أو جدل أو مناظرة تمهيداً للتعارف؛ لأن العلاقات التي تقوم على التعارف تدوم، وما كان على قاعدة الجهل بالآخر نتائجه ستكون غير صحّيّة.

لذلك كان البلاغ الإلهي للناس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣).

وقد علق على ذلك شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي قائلاً: "إن الاختلاف بين الناس في شؤون دينهم أو دنياهم أمر قديم، وسيبقى قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... ونريد هنا أن نقول: إن شريعة الإسلام، قد ساقت من المباديء السامية، والآداب العالمية، والهدايات الرفيعة، ما ينظم هذه الخلافات، والمحاورات، والمناظرات، التي تحدث بين الناس، وما يجعلها تدور في إطار المنطق السليم، والفكر القويم والجدال بالتي هي أحسن، وما يجعل هدفها الوصول إلى الحق والخير، ومنفعة الناس في حدود ما أحله الله تعالى لهم»(١).

لعل أمر واقعية التنوع وضرورة التلاقي عند قضية ما وفق أسس سليمة؛ ينطلق من حقيقة كونية أرادها الله تعالى، وفي النص القرآني ما يؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

هذا الاختلاف واقع وحقيقة وهو غير الخلاف، فالخلاف لدد وخصام ونزاع، والاختلاف إقرار بالتنوع، وبوجود آخر ليكون بعد ذلك حوار أو جدل أو مناظرة. فما حكاية هذه المصطلحات؟

أ- **الحوار: لغة:** "الحَوْر: الرجوع عن الشيء، حار على الشيء وعنه حواراً

(١) طنطاوي، الإمام د. محمد سيّد،/ أدب الحوار في الإسلام، القاهرة، دار النهضة – مصر، سنة ١٩٩٧، ص ١٦ .

ومحاوراً ومحارة وحؤوراً: رجع عنه وإليه... الحور: التحيّر، والحور: الرجوع. يقال: حار بعدما طار. والحور: النقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال، وفي الأثر: ((نعوذ بالله من الحور بعد الكَوْر))، معناه من النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها، وأصله من نقض العمامة بعد لفّها، مأخوذ من كوْر العمامة إذا انتقض ليّها وبعضه يقرب من بعض، وكذلك الحور بالضم. وفي رواية: بعد الكون. قال أبو عبيد، سئل عاصم عن هذا فقال: ألم تسمع إلى قولهم: حار بعد ما كان؟ يقول إنه كان على حالة جميلة فحار من ذلك، أي رجع... وفي المثل: حور في محارة، فمعناه نقصان في نقصان، ورجوع في رجوع "(١).

" حاوره محاورة وحواراً: جاوبه وراجعه الكلام.. تحاور القوم تحاوراً: تراجعوا الكلام وتجاوبوا "(٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ١٤)؛ أي ظنّ أنه لن يرجع مبعوثاً يوم القيامة، هذا ما يؤكد المعنى الاصطلاحي لمفردة: حوار. ويتحاورون: يتراجعون الكلام. فالحوار أخذ وردّ في الكلام بين طرفين يبدأ من طرحٍ لفكرة يبدأ منه أحد الطرفين، فيقوم الطرف الآخر بتمثّل هذا الطرح، ويرد عليه فينتج من ذلك تجاوب يولّد عند كل من الطرفين مراجعة لما طرحه

(١) ابن منظور، لسان العرب، م٢، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص١٠٤٢.

(٢) معجم النفائس الكبير، جماعة من المختصين بإشراف د. أحمد أبو حاقة، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص٤٥٤.

الطرف الآخر، ولذلك يكون المحاور مستعداً للتراجع أو التنازل عن بعض مواقفه أو بعض ما في مواقفه؛ أو أنه يكون مستعداً للتحول من حال إلى حال، والحوار لا يلتزم أسلوباً واحداً، بل قد يكون المحاور مستفسراً طارحاً الأسئلة، وقد يكون في حالة التفنيد ودحض ما طرحه الآخر، وقد يعمد إلى عرض البراهين والحجج دعماً لموقفه الذي طرحه.

كل ما تقدم يبين كيف أن المحاور يكون في موقع الجاهزية للرجوع عن أمر أو إلى أمر، والمتحاورون قد يرجح أحدهم رأي أو موقف غيره أو فكره وقوله؛ لذلك لا يكون الحوار مع تمسك كل طرف بما هو عليه.

فالحوار منهج يحتاجه كل مجتمع إنساني من لقاء اثنين إلى الأسرة، فالعائلة ، فالقبيلة، فالمدينة، فالأمة، فالأمم، ولا يكون اجتماع بشري دون حوار، لكن الحوار قد يتخذ المنحى الإيجابي الذي يقود إلى التفاهم، ويؤسس لعلاقات سليمة، وقد يتخذ المنحى السلبي وأساليب القسوة والعنف، فتكون بسببه القطيعة والنفور والتباغض، والحوار الإيجابي هو ما رافقه العلم والوعي، وحضور العقل في كل خطوة.

أما إذا كان الحوار مبنياً على الجهل والعصبية والانفعال فإن نتائجه تكون وخيمة.

وقد تضمّن كتاب: "الإسلام والآخر" طرحاً يتخذ فيه الحوار الاتجاه المثمر، وهو الطرح التالي: "الحوار هو المراجعة في الكلام، أو الأخذ والردّ بين شخصين أو طرفين، لكل منهما مفاهيمه أو أفكاره أو آراؤه أو مقترحاته، وتجاذب أطراف الحديث بين شخصين أو أكثر يُهدف منه الوصول إلى لغة

مشتركة، ومفاهيم متقاربة، وتشخيص موَحّد إن أمكن للأشياء كلّها، وللمشكلات كافة.

فالحوار لا تكون فيه معاندة، بل منهجه يستلزم أن يدخله الأطراف، وعندهم الجاهزية للتنازل أو للتراجع عما يبيّن لهم الآخرون عدم جدواه، أو الاستعداد للانتقال إلى ما يطرحه الآخر، إذا كان ما يطرحه محقًّا في مواجهة باطلٍ ما.

وقد أسس اللغويون لهذا حين قالوا: المحاورة؛ المجاوبة، والتحاور؛ التجاوب. والمتجاوب هو من هجر السلبية والمعاندة والتعصب للرأي ليأخذ بما يبدو له عند الحوار مع آخرين أنه الصواب والحقّ"(١).

إن الواقع المعاصر بما يسوده من أشكال العداوة والنزاع والحروب تحت مسميات متعددة، وبسبب مآرب ومقاصد طابعها الظلم لن يكون الخروج منها بغير حوار بنّاء ينطلق من قيم الخير والحق والعدل؛ ليكون التعاون المثمر حضارياً في سبيل إسعاد الإنسان.

هذا الحوار هو الذي يقبله المسلمون انطلاقاً من شريعة الإسلام التي نصت على تكريم بني آدم. وقد قال في هذا أحد دعاة الحوار من المسلمين: "إن الحوار هو الوسيلة المثلى للوصول إلى الحق. وإننا حين نتأمل- في ضوئه- واقع الحياة الإنسانية اليوم، ننتهي إلى ضرورته لإحلال التفاهم، وتقوية التعاون، وللتقريب بين الناس على ما بينهم من اختلاف لا سيما بعد أن

(١) السحمراني، أسعد، الإسلام والآخر، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٧، ١٨.

زالت أو كادت المسافات بين الأقطار والمجتمعات، وقويت وسائل التواصل وتعددت، وحلّت كل مكان. وبذلك يتحقق التعاون الذي دعا إليه الإسلام والذي به يحلّ السلام والحقّ "(١).

ب- **الجدل: لغة:** "الجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، .... ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً، الاسم: الجدل، وهو شدّة الخصومة .... ويقال: إنه لجدل إذا كان شديد الخصام. "(٢)

وعند الجرجاني في التعريفات: "الجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. والجدل رفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة. "(٣)

إن الجدل ينطلق من أسس راسخة يؤمن بها من يحملها، ويلتزمها بثبات دونما ميل إلى التنازل أو التراجع عن أي شيء فيها؛ بخلاف الحوار الذي يرتكز على المراجعة والتنازل. فالجدل "يشير إلى تمسّك طرف أو شخص بموقف، والمعاندة فيه وعدم الاستعداد للتراجع أو التنازل، ولذلك يقال: الجدل، شدة الخصومة. أو تجادلا: تخاصما. فالمجادلة تؤشّر دوماً إلى

(١) الجراري، د.عباس، الحوار من منظور إسلامي، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو)، سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص٥٧ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، م١، م.س.، ص٥٧١ .

(٣) الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، تحقيق د. محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٣٧ .

المخاصمة والتناقض في الرأي، بحيث يكون الهدف إلزام الخصم بما عليه المجادل "(١).

والجدل يكون على نوعين:

- جدل مذموم وهو الذي يكون مرتكزاً إلى الباطل ، ويقصد به صاحبه المراء أو الكبر أو حب الظهور والشهرة مع المعاندة بما هو فاسد.

- جدل محمود مطلوب وهو الذي يهدف إلى استمالة الخصام بقوة الدليل والحجة، وهذا النوع يرتكز على الحق، ويكون صاحبه صلباً يسعى لغلبة الحقيقة.

والمجادل المحق الذي يمتلك الحجة يواجه خصومه من دعاة الباطل إلى بيان برهان ليعجزهم لأنهم لا يملكون ذلك، وفي الآية الكريمة مواجهة مع من زعموا أن الجنة مآبهم من غير المسلمين ، وقد قال الله تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (البقرة:١١١).

إن الدعوة إلى الإسلام هي الدعوة إلى دين الحق لذلك كان الجدل ضرورة لكل داعية، وقد بيّن ابن الجوزي الحاجة إلى علم الجدل، فقال: "اعلم - وفقنا الله وإياك - إن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشّى بدونها كلام مناظر، لأن به يتبيّن صحة الدليل من فساده - تحريراً وتقريراً - وتتضح الأسئلة الواردة - من المردودة - إجمالاً، وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة، ولو خُلّي كل مدّعٍ ودعوى ما يرومه -

(١) السحمراني، أسعد، الإسلام والآخر، م.س.، ص ١٨ .

على الوجه الذي يختار- ولو مكّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه - حتى شاء - لأدّى إلى الخبط، وعدم الضبط، وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتميّز المستقيم من السقيم. "(١).

الجدل المحمود إسلامياً إنما هو عمل محمود لنشر الحقيقة، وكي يدحض المجادل الباطل ويبين تهافت حجة الخصم ومنطقه، ويقول فيه القنوجي: "علم الجدل: هو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد ونقض أي وضع كان. وهو من فروع علم النظر، ومبني لعلم الخلاف. مأخوذ من الجدل الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنه خصّ بالعلوم الدينية.

... والغرض منه تحصيل ملكة النقض والإبرام والهدم والأحكام. وفائدته كثيرة في الأحكام العلمية من جهة الإلزام للمخالفين ورفع شكوكهم. "(٢).

ويكمل القنوجي قائلاً: "والإنصاف أن الجدل لإظهار الصواب على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل: ١٢٥) لا بأس به وربما ينتفع به في شحذ الأذهان وتصقيل الخواطر وتمرين الطبائع والممنوع هو الجدل الذي يضيع الأوقات ولا يحصل منه طائل. "(٣).

---

(١) ابن الجوزي، محيي الدين يوسف بن عبد الرحمن، كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تحقيق محمود بن محمد السيد الدغيم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٩٩ .

(٢) القنوجي، صدّيق بن حسن خان، أبجد العلوم، ج٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٩٩م، ص ١٧٦، ١٧٧ .

(٣) القنوجي، صديق بن حسن خان، أبجد العلوم، ج٢، م.س.، ص ١٧٨ .

فالجدل إذن نوعان:

١- جدل يعوّد صاحبه المناظرة والمواجهة ويصقل الشخصية، ويعود بالنفع الذي هو دحض الباطل، وإظهار الحق.

٢- جدل مذموم يضيع الأوقات، ولا يجلب سوى الحسد والبغضاء ولا يوصل إلى نتيجة ، وهو جدل عقيم.

الجدل يكون في عرض متعلقات الدعوة، والصلابة في الموقف الإيماني حيث لا مجال للمراجعة أو التراجع؛ بينما الحوار يكون في شؤون تحتمل ذلك كالأوضاع الاقتصادية والسياسية والفكر التربوي، والعلاقات بين الدول والجماعات البشرية، ولذلك يكون الجدل في الموقع الإسلامي في المسائل الدينية، أما الحوار فيكون في كل شؤون الحياة.

وقد أقام السيد محمد حسين فضل الله مقارنة لطيفة بين الحوار والجدل قال فيها: "عاشت هاتان الكلمتان في حياة الإنسان ووعيه منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية التي تختلف فيها الآراء، وتتنوع عندها الأفكار، لتجسد له المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض، وفي ميادين الصراع، فقد يحدث له أن يتحرك من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح التي تتمثل في النفاذ إلى كل جانب من جوانبها؛ لئلا تبقى هناك حاجة للاستفهام أو المعارضة الناتجة من خفاء بعض القضايا الملحّة، وهنا يبرز الحوار الذاتي تارة، والحوار المشترك تارة أخرى الذي يتدرج فيه الفكر من نقطة إلى نقطة أخرى، ومن مرحلة إلى مرحلة ثانية، ليجمع في إطاره كل النقاط وكل المراحل وهذا ما نلتقي معه في

كلمة الحوار.

وقد يحدث له – في حالة أخرى– أن يخوض الصراع من أجل فكرته، ضد المعارضين له فيتحول الموقف إلى صدام تتجاذبه حالة الكرّ والفرّ، والهجوم والدفاع، وتهيمن عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي، من أجل الوصول إلى الغلبة؛ إن كان هناك مجال للغلبة أو إلى التفاهم، إن كان هناك سبيل إليه.

وهذا هو ما توحيه لنا كلمة الجدل، فهي توحي لنا بمعاني الحوار الذي يعيش في أجواء الخلاف الفكري والعقدي، بينما توحي لنا الكلمة الأولى بأوسع من ذلك. "(١).

إن ميدان الدين والثقافة يكون فيه جدل، والحوار ممكن ؛لا بل ضروري ومفيد في حقول الحضارة وسائر أمور الاجتماع البشري.

ج– المناظرة: لغة: "علم المناظرة: علم يُعرف به آداب طرق إثبات المطلوب ونفيه، أو نفي دليله مع الخصم.

والمناظرة: مجادلة بين شخصين في موضوع أدبي أو سياسي أو نحوه أمام الجمهور، وفنّ من فنون الإنشاء كثير الأناقة، يقوم على نسبة الكلام إلى متخاصمين يفاخر أحدهما الآخر. "(٢).

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين، الحوار في القرآن، بيروت، دار التعارف، ط٥، سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، ص ١٥ .

(٢) معجم النفائس الكبير، م٢، م.س.، ص ٢٠١٧ .

والمناظرة، مثل الحوار أو الجدل كلام يتبادله طرفان يعمد كل منهما إلى ترتيب كلامه منهجياً وتقويته بالأدلة مقارناً مع كلام من يناظره ليظهر الحق على يده، وقد أجرى عبد الرشيد الجونغوري مقارنة بين المناظرة والمجادلة، وجاءت على إيجازها مركزة، وحوت بياناً كافياً. قال في المناظرة: "توجّه المتخاصمين بين الشيئين إظهاراً للصواب"(١) والمجادلة: "هي المنازعة، لا لإظهار الصواب، بل لإلزام الخصم"(٢).

المجادلة تنطلق من أمور مسلمة هي أنها تحمل الحق وتعمل لإلزام الآخر به.

والمحاور يدخل اللقاء الحواري و يتجاوب مع الآخر مع توليد أفكار جديد ينتجها مسار الحوار، وأما المناظر فإن الهدف عنده تبيان الحقيقة، وإن كان جدياً لا يهمه ما إذا كانت الحقيقة ستظهر على لسانه أو على لسان من يناظره، هذا ما ذهب إليه القنوجي حيث قال: "علم المناظرة: علم باحث عن أحوال المتخاصمين ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما"(٣).

والمناظرة عند علماء المصطلح هي: "المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة

---

(١) الرسالة الرشيدية للشيخ عبد الرشيد الجونغوري الهندي على الرسالة الشريفة للسيد علي ابن محمد الجرجاني، تحقيق وشرح علي مصطفى الغرابي، القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح، سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩م، ص١٥ .

(٢) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص ١٨ .

(٣) القنوجي، أبجد العلوم، ج٢، م.س.، ص ٤٢٨ .

كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم أو غلبة الظن ليظهر الصواب "(١).

وإذا كانت المناظرة فنّاً اشتهر في التاريخ العربي والإسلامي، وقد جرت وقائع المناظرات بين الفقهاء المسلمين حول بعض المسائل أو بين المسلمين وسواهم، وفي كل الحالات كان المقصد إظهار الحقيقة. لكن نبه علماء الأصول ومن دققوا المصطلحات من سلوك قد يلتبس مع المناظرة ويكون المردود سلبياً إنه المكابرة. والمكابرة "في الإصطلاح، المنازعة بين الخصمين لا لإظهار الصواب بل لإظهار الفضل والغلبة، ومن أمثلتها أن يقول المعلّل صاحب التصديق: الكلّ أكبر من الجزء، والواحد نصف الاثنين، والأربعة زوج، فيقول السائل: أمنع هذه الدعاوى أو واحدة منها، فإن قال ذلك فهو مكابر، والمكابرة وظيفة مردودة لا تسمع ولا تقبل كما لا يخفى، ومن المكابرة منع التصديق النظري الذي أقام المعلّل عليه دليلاً صحيحاً لا يمكن تطرق الخلل إليه بوجه من الوجوه. "(٢).

إن المناظرة عمل محمود الأساليب والنتائج، ونقيضه المكابرة ، وهي مذمومة في أسلوبها وسلبية في نتائجها، وكأن الأمر يلتقي مع حالة الجدل، فمنه المحمود وتحاكيه المناظرة، وهناك الجدل المذموم وتحاكيه المكابرة.

وهذا ما دفع ابن خلدون إلى التنبيه في "المقدمة" إلى أمر هو ضرورة

---

(١) الشنقيطي، الشيخ محمد الأمين، أداب البحث والمناظرة، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ومكتبة العلم بجدة، بدون تاريخ، ص٣ .

(٢) الشنقيطي، الشيخ محمد الامين، م.س.، ص ٦٣ .

وضع قواعد وآداب للجدل والمناظرة، ولم يفصل بينهما. قال ابن خلدون: "الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوّغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون خصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه."(١).

إن هذه القواعد المنهجية التي أشار إليها ابن خلدون يحتاجها كل موقع فيه مناظرة أو حوار، وهناك للجدل كذلك آدابه أو الأصل أن الإنشاء الجيد المشبع خطاباً أو كتابة بالكلم الطيّب يكون له نتائجه الإيجابية، ويكون خلاف ذلك الخطاب المشحون بالانفعالات والكلام الخبيث أو عندها تكون النتائج في غير المقاصد السامية المرادة سواء للاستمالة والاستقطاب أو للاقتناع أو للتقارب والتفاهم؛ تمهيداً لعلاقات حياتية مستقرة.

وخير الكلام والقول خاتمة بعد هذا العرض، قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ، ص ٣٦٢ .

يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦).

يتبين من هذه المقارنة في الأثر بين نوعي الكلمة الطيبة والخبيثة ما للكلمة الطيبة من أثر وأهمية في أدب الحوار والجدل والمناظرة، فإذا كان لكل شجر ونبات موسم في السنة أو موسمان؛ فإن الكلمة الطيبة تعطي الثمر على امتداد الزمان والمكان، وهذا يحمّل الدعاة ومن يحملون الرسالة والعلم والفقه مسؤولية تتمثل في حفظ اللسان عن كل ما يشين، وأن تتمّ دراسة الكلمة والتفكير بها قبل أن تخرج إلى التداول كتابة أو خطابة أو رمزاً وإشارة.

تأصيل الحوار من المصدر القرآني:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأساسي في الإسلام، فهو كلام الله تعالى الذي نزل وحياً على رسول الله ﷺ، وكان معجزاً عقلياً لا يمكن لإنسان أو جنّ أن يأتي بمثل آية منه أو أقل أو أكثر، وكل تأصيل إسلامي إذا أريد له أن يكون سليم الاتجاه دقيقاً لا بد له من أن ينطلق من النص القرآني.

وقد جاء النص القرآني بوجوه عديدة من أنواع المحاججة لغير المسلمين من مشركين إلى وثنيين يعبدون أصناماً أو كائنات؛ وصولاً إلى أتباع الرسالات السماوية. لكن ما تجدر الالتفاتة إليه بداية هو أن بعض من كتبوا في هذا الباب تجاوزوا الحد المقبول حين تحدثوا عن حوار بين الله تعالى وبين كائنات كالملائكة أو إبليس أو سواهم، والقول الفصل هو أن الله تعالى يقضي ويأمر وينهى ويقدّر ويبلغ، لكن لا يصح أن ينسب أحد الحوار لله

تعالى انطلاقاً من معنى الحوار لغة واصطلاحاً، والذي يكون مما يقبل المراجعة والأخذ والرد، والمحاور في المجاوبة لا ينطلق من مسلمات وثوابت أو مرجعية يعمل لإلزام الخصم بها، فكيف يصح أن يقال: إن الله يحاور؟

فالحوار والجدل والمناظرة وسواها من المصطلحات تخص البشر، ولا يليق أن ينسب ذلك إلى الخالق سبحانه.

جاء التمييز بين الجدل والحوار في الآية الكريمة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)، فالآية نزلت مع واقعة أوس بن الصامت شقيق عبادة حين ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة فجاءت إلى رسول الله ﷺ غاضبة من فعله، ومنفعلة، وبدأت كلامها جدلاً فيه تشدّد ومعاندة، وبعد أن أعطاها رسول الله فرصة الكلام وتفريغ بعض الشحنة النفسية حصل عندها بعض هدوء، وباتت مستعدة لمراجعة الكلام، فتحول الأمر إلى الحوار. فرسول الله لم يدخل جدلها لأنه من النوع المذموم، والكلام عن الجدل جاء منسوباً لها: ﴿تُجَادِلُكَ﴾، والحوار الإيجابي جاء فيه الخطاب القرآني مع ألف التثنية: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾.

جاء الحوار في النص القرآني مصطلحاً في سورة الكهف في سياق كلام بين مؤمن وكافر، وكان الثاني يملك بستانين يباهي بهما، وقد أعرض عن الإيمان لأنه اكتفى بجنتيه الدنيويتين.

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)﴾ (الكهف: ٣٢-٣٨).

صاحبان أو أخوان افترقا عقدياً، فآمن أحدهما وتصدّق بماله، ولم يكنز منه شيئاً مقدماً لنفسه ساعياً للفوز العظيم في الآخرة، أما الثاني فقد اشترى بماله بستانين يضمان أنواعاً كثيرة من الشجر المثمر، وعمل على تنمية ماله حتى ازدادت ملكيته، وملك مع المال والثمر قبيلاً من الناس يحيطون به. أمام هذا الواقع أراد المؤمن أن يدعو صاحبه إلى عقيدة التوحيد فكان الحوار الدعوي مع الحجة والبرهان، وقام على التذكير بأن الله تعالى قد جعل أصل آدم من تراب ، ثم كان التوالد من النطفة، ولم يكن ذلك إلا بإرادة الله تعالى وقدرته سبحانه، والتأمل في هذه الحقيقة الكونية سبيل للإيمان بالله .

أما المعاند فإنه فاخر بجنتيه وثمره وأشرك بالله، وزعم أن ماله لن يبيد ، بل سيبقى له مستمر العطاء في المراحل كافة، وكأن هذا المشرك بات معطّل التفكير، وأعمى البصيرة، وهو النموذج لكل من غرقوا في المطالب المادية الدنيوية، وهذا الحوار نموذج دعوي لكل مؤمن بأن يقصد الغارقين في الدنيويات الغافلين، كي يحرك فيهم الفطرة انطلاقاً من الأصل، وهو عقيدة التوحيد، والدعوة تكون تنبيهاً من الغفلة، وتذكيراً بأصل الإنسان الذي هو

من الطين كي لا تغرّه دنياه أكثر.

إن الحوار الدعوي القرآني المصدر يكون جدلاً، لأن الدعوة تكون مع الثبات على الالتزام بعقيدة التوحيد، والتمسك بشرع الله، ولا مجال لجديد يولّده الحوار؛ بل الأصل أن الداعية يعمل لإلزام من يدعوه بما يحمل من دعوة، ولا مجال للتنازل أو التراجع. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

الخطاب الإلهي جاء إلى رسول الله، وعن طريقه إلى كل مؤمن، وهو يقول: "ادعُ إلى الطريق الذي شرعه ربك مع قومك، واسلك في دعوتهم الطريق الذي يناسب كل واحد منهم، فادعُ معتمداً إيراد المواعظ، وضرب الأمثال التي توجههم إلى الحق، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، وجادل أصحاب الملل السابقة من أهل الكتب بالمنطق والقول الليّن، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سباب؛ حتى تتمكن من إقناعهم واستمالتهم، هذا هو الطريق لدعوة الناس إلى الله على اختلاف ميولهم، فاسلك هذا الطريق معهم، واترك أمرهم بعد ذلك إلى ربّك الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جئتم به" (١).

إذن الأمر في الدعوة إلى الإسلام هو جدل لا حوار، ولكن هذا الجدل

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن العظيم، المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط١٨، سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٤٠٧ .

يحتاج لأسلوب ولأداء مميّزين يحققان الاستمالة والإقناع، ومن مقومات ذلك الابتعاد عن الكلام الفظ واللهجة القاسية؛ هذا مع التوجه إلى كل إنسان بما تقبله مداركه من الحجج أو الخطاب. فالرسالة ثابتة، ودور المرسل استقطاب المتلقّي إلى فضائها، وهذا يكون مع كل غير المسلمين أيّاً كان انتماؤهم أو كانت مفاهيمهم وعقائدهم.

والجدال بالتي هي أحسن مطلوب مع أهل الكتاب من يهود ونصارى، ولا يكون الخروج عن هذا المنهج إلا مع من عادوا وظلموا وعاثوا في الأرض فساداً ؛ حيث يحتاج الأمر عندها إلى إجراءات رادعة تمنع أذاهم وإفسادهم، وهذه هي سياسة التدافع. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

إن منهج الجدل والمناظرة يقتضي أن يبدأ الداعية كلامه من المشترك مع المتلقين، والمشترك هو الإيمان بالله سبحانه، ومن ثمّ ما تفرضه عقيدة الإسلام بأن يؤمن بما أنزل الله من رسالات قبل الإسلام؛ بالإضافة إلى الإيمان بكل الرسل والأنبياء، بهذا الأسلوب تكون قد توافرت مساحات اللقاء، وتأتي بعدها المجادلة بالتي هي أحسن فترقق القلوب، وتؤلفها مما يخلق حالة من الإستجابة.

وقد قال الإمام الجويني بشأن المجادلة بالتي هي أحسن: " وأحسن شيء

(١) الجويني، إمام الحرمين، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوقية حسين محمود، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، ص ٥٣٨ .

في الجدال المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل، فإن الأدب في كل شيء حليته.

فالأدب في الجدل يزين صاحبه، وترك الأدب فيه يزري به ويشينه. ومعظم الأدب في كل صناعة استعمال ما يختص بها، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها " (١).

فالجدل يجب أن يكون هادفاً ونافعاً، ومقترناً بأدب جمّ لما لذلك من كبير الأثر في نفوس من يخاطبهم المجادل عن قضية ما، ولا يخفى على دارس السيرة النبوية الشريفة، وعلى من يتابع سير السلف الصالح مقدار ما فعلته آداب الجدل والقدرة على الإقناع في استقطاب الناس إلى الإسلام أفراداً ومجموعات.

حوى النص القرآني جدلاً على شكل مناظرة بلسان نوح وقومه كان مقصده دعوياً، وقد انطلق من الأصل ألا وهو دعوة نوح لقومه كي يعبدوا الله تعالى، ويهجروا ما يعبدونه، وقد بيّن لهم ركن الإيمان الثاني ألا وهو الإيمان باليوم الآخر لأنهم إن أصرّوا على ما هم عليه فسيكون مصيرهم الأخروي صعباً، وسيكون لهم العذاب بسبب تمسكهم بعقيدتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص ٢٨ .

الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾ (هود: ٢٥-٣٣).

إنه الجدال الحميد الذي مارسه نوح عليه السلام عندما اصطفاه الله تعالى، وقد ناظر نوح قومه مجادلاً لا محاوراً لأن ما يدعوهم إليه من عقيدة لا مكان فيه للمراجعة ولا للتنازلات، بل مقصد الجدل إلزامهم بالعقيدة السليمة ، وقد قدمت الآيات قواعد كثيرة من أركان وأسس الجدل لإلزامهم بالعقيدة السليمة، وقد قدمت الآيات قواعد كثيرة من أركان وأسس الجدل المطلوب من قبل الدعاة، وهي: الجدل طاعة لله ؛ وليس لغرض خاص، والجدل القائم على العلم والبينات وأن عتادهم كان سببه ما هم عليه من الجهل، هذا مع تمسك نوح بأتباعه ومن ناصروه أيّاً كان عددهم، وحين طالبوه بأمور هي شأن إلهي فإنه بكل تواضع المجادل وتأكيد بشريته رد عليهم: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

نخلص إلى القول مع القرطبي: "الجدل في الدين محمود، ولهذا جادل

نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخسر. وأما الجدال بغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم "(١).

إن صورة الجدل المذموم جاءت في النص القرآني في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر: ٤-٥).

إن آيات الله قائمة في الكون، وهو الكتاب المنظور، والآيات كذلك هي في الكتاب المسطور القرآن الكريم، ومع هذه الآيات بنوعيها نجد المشركين والكفار يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وهذا المنهج اعتمده آخرون منهم قوم نوح رغم إلحاحه في دعوتهم، وقد عمد هؤلاء إلى إيقاع الأذى بالرسل عندما أيقنوا بأن حججهم ضعيفة، وبأن منطقهم متهافت.

والمعاندون بالباطل المجادلون بغير وجه حق يؤدي بهم إلى ذلك جهلهم وضحالة معارفهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج: ٣)، والنص القرآني يبيّن بشكل جلي كيف أن من يجادل ويحاجج واجبه أن يتسلح بالعلم في الموضوع الذي يناظر فيه غيره، وإذا حصل وكان لا يملك العلم الوافي فعليه الانسحاب من

(١) الباجي، أبو الوليد، كتاب في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، سنة ١٩٨٧، ص٨ .

ميدان المناظرة أو الحوار أو الجدل. "وقد نطق الكتاب بالمنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده"(١) قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ (آل عمران: ٦٦).

المحاجة أو المحاجّة هي المخاصمة والجدل، وقد وردت في النص القرآني في قصة إبراهيم ودعوته لمن ينكر وجود الله تعالى (النمرود)، وفي الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

الآية خطاب إلهي فيه: "ألم ترَ إلى مَنْ عَمِيَ عن أدلة الإيمان، وجادل إبراهيم خليل الله في ألوهية ربه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه الذي وهبه ربه من نور الفطرة إلى ظلام الكفر، فعندما قال له إبراهيم: إن الله يحيي ويميت، بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه، قال: أنا أحيي وأميت بالعفو والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ؛ إن كنت إلهاً كما تدّعي، فتحيّر وانقطع جدله من قوة الحجة التي كشفت عجزه وغروره، والله لا يوفق المصرّين المعاندين إلى اتباع الحق"(١).

شخص كافر معاند (النمرود) حاول مجادلة إبراهيم عليه السلام، ووصل به عناده وجهله بأن يفترض أن عفوه عن شخص أو تقديمه العون لشخص إنما

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، م.س.، ص٦٢ .

هو إحياء له، وفي هذا يظهر منتهى الجهل، ولذلك لم يكن من خيار سوى مواجهته بحجة وبيان لا يستطيع الرد عليهما. الشمس بادية للعيان وخلال حركة الأرض تظهر الشمس صباح كل يوم من الشرق، وبعد مضي النهار، وعندما يحين موعد بدء الليل تغيب الشمس عن نظر المراقبين في موقع من الأرض من المغرب، ولكل موقع مشرق ومغرب، والتحدي لهذا المعاند كان بمطالبته إن كان بوسعه تغيير هذه السّنّة الكونية، وهنا بدا عجز هذا الكافر، فتحيّر وصمت مبدياً عجزه، وغلبته الحجة البالغة.

لقد سجل القرطبي ملاحظتين حول المحاجّة الواردة في هذه الآية فيهما قاعدتين للحوار، وقد جاء عنده في تفسيره:

١- قال المزني صاحب الشافعي: ومن حقّ المناظرة أن يراد بها الله عزّ وجلّ وأن يقبل منها ما تبيّن.

٢- وقالوا: لا تصحّ المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو هراء ومكابرة"(١).

المؤمن يحاجج داعياً ومستميلاً الناس إلى الإيمان وطاعة الله تعالى، ولا تكون مناظرته الآخرين من أجل المباهاة أو كسب الشهرة، وقد تحدث عن ذلك الإمام الجويني مبيناً قواعد وآداب الجدل، فقال:

"فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه، وطلب

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، م.س.، ص٢٨٦، ٢٨٧ .

مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق عن الباطل وعما يخبر فيه، ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل.

ويتقى الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه، والتكسّب والمماراة، والمحك، والرياء، ويحذر أليم عقاب الله سبحانه.

ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر، فإنه من دأب الأنعام الفحولة كالكباش والديّكة "(١)، أي أن العالم المجادل الذي يحمل رسالة لا يكن في مناظرته كمن يناقر كالديكة، ولا كمن يناطح كالثيران وإنما الأصل أن يتبين الحق، والمجادل أو المناظر لا يهمه إن كان ظهور الحقيقة على يديه أو على يدي من يناظره ؛ لأن الأمر ليس أساسه الغلبة؛ بل الغاية هي الحق.

لكن المشكلة تكون حين يكون الخصم جاهلاً معانداً؛ فمثل هذا الشخص لا مجال لإقناعه أيّاً كانت الحجج والبراهين؛ لأن مستوى فكره وعمله ينحط عن إمكانية استيعاب المفاهيم والحقائق، وهذا يوجب أن يتجنب العالم مناظرة الجهلة، وعندها يكون العلم أساساً في أدب المناظرة والمجادلة.

وقد جاء في قول مشهور في الأثر منسوب للإمام علي كرم الله تعالى وجهه: "ما جادلت عالماً إلا غلبته، وما جادلني جاهل إلا وغلبني."

إن مناظرة إبراهيم عليه السلام جاءت في منهج الحوار الهادف إلى الإقناع لذلك تدرج معه في الحجة، ولما لمس عناده وإصراره اضطر أن يعطيه حجة

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص ٥٢٩ .

بالغة أحدثت صدمة فكرية له رافقتها حالة حيرة وقلق، وهذا خير الأساليب لاستنفار الفطرة السليمة في الإنسان لتتجه به إلى طريق الحق. وقد علق على هذا السيد محمد حسين فضل الله تعليقاً لطيفاً حيث قال:

"نلاحظ في أساليب الرسالة التحرك الهادئ الوديع الذي يفتح قلوب المشركين على كلمة التوحيد فكراً وعملاً، ويفرغ أفكارهم تدريجياً من كل معاني الشرك ودوافعه في خطة مدروسة حكيمة، تضع لكل موقف فكر وتأمل، يراجع فيه موقفه ويحاكم - في ضوئه - عقيدته، وقد تمسّ الحاجة إلى الطريقة التي تجعله يواجه موقف السخرية من عقيدته، عندما تنكشف له جوانب الضعف التي تحيط بها من كل جهة... إنه لا يهدف من صراعه أن يسجل على خصومه موقفاً للغلبة في ميدان السباق بل كل هدفه أن يجعلهم يتحركون معه في الخط الذي يسير عليه ليتّحد الموقف والمصير عن طريق القناعة الذاتية المرتبطة بالبرهان الواضح والحجة القويمة"(١).

لقد جاء في هذا المنهج الحواري المتدرج وصولاً إلى الصدمة فالإقناع؛ تلك المناظرة بين إبراهيم وقومه حين قام بتكسير أصنامهم التي يشغلون أنفسهم بها ويعبدونها من دون الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ

(١) فضل الله، السيد محمد حسين/ م.س.، ص ٧١.

الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)﴾ (الأنبياء: ٥٢-٦٥).

إنها مناظرة أظهرت عجز قوم إبراهيم في الدفاع عن أصنامهم، وعجز الأصنام عن النطق أو الدفاع عن أنفسها، وهذه المحاجّة أوصلتهم إلى تسليم بأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه الشر، وبذلك ظهر لهم خطأهم وفساد عقيدتهم، ووصل بهم الأمر إلى حد الاستسلام أمام براهين إبراهيم، فردوا: كيف تطالبنا أن نسأل الأصنام الجواب وأنت تعلم أنهم لا ينطقون؟

مناظرة إبراهيم للكافر المعاند ويقال إنه النمرود اعتمدت برهاناً من السنن الكونية ﴿فبهت الذي كفر﴾، ومناظرة قومه اعتمدت إظهار العجز في الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى فقالوا لبعضهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فسلموا بأنّهم ظالمون لأنفسهم بعبادتهم هذه، وليس إبراهيم من ظلمهم، هكذا تتنوع مضامين المناظرات ويبقى الهدف واحداً ألا وهو إثبات وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته كي يدين به ويؤمن به من فسدت فطرتهم ويعودون إلى الرشد.

وتمتد المناظرات بعد ذلك إلى القيم الناظمة لشبكة العلاقات في المجتمع، لأن

فساد العقيدة عند قوم يتبعه سلوك فاسد، وأفعال مهلكة، ورذائل ومساوئ في الأخلاق، ولا يكون الرادع إلا الإيمان فهو العاصم من كل فساد وخطأ ورذيلة. وهذا يعطي للمناظرين من الدعاة بادرة جديدة لمنطلقات الحوار مع غير المؤمنين.

ولأن صلاح المجتمعات مقصد إلهي، وأساس بشري، ومعيار إسلامي كانت المناظرة التالية في الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١١-١٣).

في اللغة: الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح. والفساد: الضرر والتلف والعطب. والفساد: الاضطراب والخلل. فكلمة فساد بذلك تشير إلى وجوه عديدة من السلبيات التي تحمل مخاطر للفرد والمجتمع.

وفي معجم النفائس الكبير: السّفه: خفة الحلْم، أو نقيضه، أو الجهل.

مناظرة ينهي خلالها المؤمنون السفهاء عن فعلهم، فيرد عليهم هؤلاء لجهلهم: إنما نحن مصلحون، لأن جهلهم منع عليهم رؤية الحقيقة، ومعرفة الحق.

" قال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون.

فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، وامتنع المنافقون عن رد ما ادّعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وإن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا إفساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم، والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون، والثالث: حصر

الفساد فيهم، بقوله: هو المفسدون، والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فقال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً، ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد ومداركه وطرق علمه "(١).

لقد دعا العقلاء المؤمنون أهل السفه إلى الهدى ودين الحق فكابروا، وأظهروا تمسكهم بسفههم، وهذه حال أهل الفساد في أيامنا ؛ حيث يسترون ضلالاتهم بحقوق الإنسان والحرية وما سوى ذلك، والحقيقة أنهم متعصبون لفسادهم، ويقطعون المناظرات معهم إذا وجدوها مبنية على الحكمة والحجة الدافعة.

قال المفسرون: "وإذا قال قائل لهم ينصحهم ويرشدهم: أقبلوا على ما يجب، وهو أن تؤمنوا إيماناً مخلصاً مثل إيمان الناس الكاملين المستجيبين لصوت العقل، سخروا وتهكموا وقالوا: لا يليق بنا أن نتبع هؤلاء الجهلاء ضعاف العقول، فردّ الله عليهم تطاولهم وحكم عليهم بأنهم - وحدهم - الجهلاء الحمقى. ولكنهم لا يعلمون علماً يقيناً أن الجهل ونقص الإدراك محصور فيهم ومقصور عليهم "(٢).

---

(١) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج٣، تقديم د. وهبة الزحيلي، حققه وخرج أحاديثه مجموعة من العلماء، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ١١٢ .

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، م.س.، ص٥ .

إن أسلوب الفاسدين في المناظرة، ودفع الكلام كما بيّنته الآيات - السابقة الذكر - إنما هي من حيل المناظرة التي يعمد إليها ضعيف الحجة، وليس من واجب المؤمن أن يعمد إليها بل عليه اجتنابها لأن تلك الحيل لا تتناسب مع دين الحق. وقد لفت إلى هذا الأمر من فساد المناظرة الإمام الجويني في فصل عنوانه: "بيان حيل المتناظرين"، فقال: "واعلم أن الحيل في المناظرة لقطع الخصم - محظور، يجب الاجتناب عنه - وهو من دأب أهل الفسوق في المناظرة، ومن عمل من قصده بالمناظرة المماراة لأهل السّفه، مجانب لطريق أهل الديانة والنصيحة، بعيد عن سلوك سبيل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(١).

أمام هذا الواقع يكون واجب الداعية المسلم الذي يناظر غير المسلمين، أو من حادوا عن جادة الصواب من المسلمين أن يبلغ رسالة الإسلام بأسلوب موسوم بالحكمة ويعرض الأمور بأسلوب الموعظة الحسنة، وبعد ذلك إن عاند من عاند، وعصى من عصى، أو أصر السفهاء على جهلهم يكون عليه أن يترك أمرهم لله تعالى لأن دوره هو التبليغ ليس أكثر. قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٩٩).

فالمهمة هي تبليغ الناس كل الناس ما أوحى به الله تعالى، وما جاء به رسول الله، لتقوم على الجميع الحجة ولينقطع عنهم العذر، وواجب الجميع تعليم ما عرفوا، وبعده يكون الأمر لله تعالى، فهو عليم بما يظهرون وما يخفون.

والحوار في الإسلام له أصوله وقواعده ومقاصده وفق موقعه، فالحوار قد يكون مع الذات، ومنه ما يكون حواراً مع الآخر، وقد ضمت النصوص

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص ٥٤٢ .

القرآنية كلا نوعي الحوار تعليماً للمؤمنين، ومما ورد في ذلك ما يلي:

١- الحوار مع الذات، وكان حواراً مقصده إيماني يقوم على موافقة القناعة للفطرة كي يحصل إسلام الربوبية والألوهية فتصح عقيدة الإنسان. وقد جاء هذا اللون من الحوار مع إبراهيم عليه السلام الذي كانت رسالته الحنيفية التي أصلت عقيدة التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيه آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٤-٧٩).

إن إبراهيم عليه السلام الذي اصطفاه الله تعالى رسولاً لم يكن محتاجاً إلى هذا الحوار الذاتي، وإنما جاء الحوار في القرآن الكريم بلسانه تنبيهاً للغافلين أو لمن فسدت فطرتهم، وفيه منهج تعليمي لكل من حمل الدعوة مجادلاً ومناظراً المشركين.

ولأن كل عصر أو مجتمع له خصائصه وسماته، ومقوماته الحضارية فكان الأصل أن يبعث الله تعالى كل رسول وهو يبلغ بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، ولسان القوم ليس

لغتهم ومفرداتهم وقواعدها، وإنما علومهم وحضارتهم، وقوم إبراهيم كانوا موصوفين بإتقان علم الفلك؛ لذلك عندما أعلن رفض الإيمان بأصنامهم اتجه الحوار الذاتي عنده إلى الكواكب والقمر والشمس؛ ليحكم بعدها بأنها مخلوقة؛ لا فعل ذاتي يصدر منها؛ إنما حركتها ظهوراً وأفولاً إنما هي سنة الله في خلقه، وهي كسائر المخلوقات محتاجة للخالق سبحانه، وهذا يأتي ضمن دلائل التوحيد، فكان ختام الحوار ما هو متوافق مع الفطرة، ألا وهو أن يتجه الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد الخالق، وأن لا يشرك بعبادة ربه أي مخلوق.

٢- الحوار مع الآخر، وكان النموذج القرآني لهذا الحوار الآيات الكريمات في سورة الكهف، ومجريات الحوار هذه كانت بين موسى عليه السلام، والعبد الصالح الذي أطلق عليه بعضهم اسم: الخضر.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ

بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ (الكهف: ٦٥-٧٨).

التقى موسى عليه السلام العبد الصالح الذي وهبه الله علماً لدنياً غير مكتسب، وهو علم يلهمه لخاصة أوليائه، وسأله أن يقبل المصاحبة كي يأخذ منه العلم، وبدأت المسيرة وكان الحوار في كل مرة حول أسئلة موسى للعبد الصالح عند كل واقعة، وكان التفسير ختاماً لكل واقعة، فالسفينة لضعاف في بلدهم ملك يغتصب كل سفينة كاملة الصفات، وجعل العيب فيها ليحفظها لهم، والغلام كان لأبوين صالحين وكان سيكون من أهل الرذائل والمفاسد وقتله ليعفي هذين الابوين من الحرج وتشوّه الصورة، وأما الجدار فتحته كنز والبناء فوقه يحفظ الكنز حتى يكبر أصحابه ويرشدون فيستخرجونه.

هذا الحوار يبيّن ما يلي:

١- موسى عليه السلام نبي وكليم الرحمن ومن الأنبياء أولي العزم، ومع ذلك أظهر الحوار القرآني كيف أن الله تعالى أعطى للعبد الصالح علماً لدنياً خاصاً ليس عند موسى عليه السلام ، وإذا نقلنا الأمر إلى المستوى البشري في كل إنسان يكون المستفاد أن العلم ليس عند شخص بعينه، وبالتالي في أي حوار يجب الانطلاق من أن الحقيقة قد تكون عند طرفي الحوار وليست الحقيقة منكرة عند واحد منهما.

٢- واجب طرفي الحوار أن يصبر كلّ منهما على ما يطرحه أو يقوم به

أحدهما حتى يظهر جلياً لأن التسرع يقطع الطريق على ذلك.

٣- أن يعرف المحاور قدر مناظره ومخاصمه، ومستواه العلمي والمعرفي، وبالتالي يترك له الحق ليفسر ما يطرح طالما أنه داخل في اختصاصه ومعارفه.

وهناك من صور الحوار مع الآخر في النص القرآني تلك الحوارات التي كانت مع يوسف عليه السلام، والتي يستفاد منها الكثير من القواعد والمباديء وكذلك الأساليب الحوارية. ويأتي في أهداف الحوار إبراز الضعف في الطبيعة البشرية، وهو أصل ويحتاج الإنسان أن يتحصن بالإيمان فهو العاصم الوحيد، وهذا ما كان من يوسف عليه السلام استعصم ونأى عن الفتنة، وما ذلك إلا لأنه نبي اصطفاه الله تعالى ومنحه الهدى فلم يؤثر فيه الإغراء والإغواء، جاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٣-٢٨).

وفي هذا الحوار القرآني تعليم بأن لا ينطلق الإنسان في أحكامه من التعاطف مع زوجته أو أحد بني قومه، لأن هذا القريب قد يكون هو من

افترى وباشر بالخطأ، ويكون عندها تطبيق القاعدة القائلة: "البيّنة على من ادّعى"، وهكذا كان وحيث إن القميص قد مُزِّق (قُدّ) من الخلف (من دُبُر)، فهذا دليل على أن امرأة العزيز هي من راود يوسف عليه السلام عن نفسه، ولما كان قد استعصم وامتنع عن التجاوب معها، وهم بالفرار وشدّته بقميصه من الخلف، وبذلك تبيّن أن كيد هذه المرأة قد دفعها إلى فعلتها هذه، والهدي الرباني هو الذي جعل يوسف معصوماً، وقد وقاه الله من ارتكاب الفاحشة، وهذا توجيه تربوي قيمي بأن صلاح الناشئة يكون في الهدي الرباني وأما الإصغاء لدواعي الفتنة ولنداء الغريزة فإنه يقود إلى ما لا تحمد عقباه.

إن تأصيل الحوار القرآني يحتاج بعد هذا العرض، وهو قليل من كثير من الحوارات والمناظرات التي حواها النص القرآني إلى طرح أهمية الموضوعية كمنهج حواري، والمقصود هنا بالموضوعية أن لا يأتي المحاور إلى مجالسه، وهو في حالة تعصب لقناعاته، أو أن يبدأ حواره من مسلمات يلتزمها. وإنما الأصل أن يكون الحوار من فرضية تساوي بين المتحاورين وينطلق فيها أطراف الحوار من الفرضية القائلة بأنهم إما أن يكونوا جميعاً غير محقين أو أنهم على الحق. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

بدأ الحوار بسؤال لمن يعبدون الأصنام وبعض المخلوقات، والسؤال هو حول من الذي خلق الرزق في كل مواقعه ومصادره؛ أكانت في الأرض أو في السماء، وبعد ذلك سيكون الجواب حكماً أن الله تعالى هو واهب الرزق، وهنا يأتي دور حسم الحوار، ولكن من الموقع الإيجابي خلال

استخدام الحجة البالغة التي تحمل طرف الحوار المخاصم وهو على الحق يسلّم، ويميل إلى الطريق القويم، ولو استخدم معه الكلام القاسي وأساليب التعبير التي تحمل الاتهام والتجريح لكان نفر من الطرف المحاور منافحاً عن الموقف الحق، ولما بلغ الحوار مقاصده.

قال القرطبي حول هذه الآية: "هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالّ وهو أنتم"(١).

تأسيساً على ما تقدم يصح القول: إن آيات الذكر الحكيم قد جاءت غنية بالنصوص التي اتخذت شكل المناظرات، وكان فيها كل أنواع المقابلة، وتبادل الكلام من الجدل إلى المناظرة إلى الحوار هذا مع ما في هذه النصوص من توجيه باتجاه الأساليب الإيجابية كالحكمة والحسنى في المقابلة والحوار، واستخدام الحجة والبيّنة إلى التواضع والموضوعية وما إلى ذلك مما يجعل من كتاب الله نبعاً ثرّاً لا ينضب عطاؤه في أمر قبول الآخر والإقرار بالتنوع، وغير ذلك مما يؤسس للعيش الكريم وللاستقرار في العلاقات الاجتماعية، وهذا قد أسس لشخصية مسلمة متميّزة ومن ظهروا على غير هذه الحال إنما كان ذلك بسبب الجهل والنقص المعرفي أما عند غير المسلمين فالنقص والخلل كائن في الفكر والنصوص قبل أن يكون في السلوك والممارسات. وما حصل في هذا العرض سيشكل مادة رئيسية في الخلاصات والتوصيات التي ستكون في هذا البحث.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، م.س.، ص ٢٩٨ .

تأصيل الحوار من فضاءات السنّة النبوية:

إن الرسول ﷺ مبعوث رحمة للعالمين، وقد كانت انطلاقة البعثة من بين ظهراني العرب، وفي القلب من الجزيرة ، مكة المكرمة؛ حيث كان سكانها مع محيطها، وفي مواقع كثيرة من العالم يعيشون حالة أميّة دينية، أو كان بعض من وصلتهم رسالة قد مالوا عنها، أو عن بعض ما جاء فيها، والأمية التي عناها القرآن هي إذن الجهل بدين الله تعالى وهديه القويم، وفي النص القرآني جاء قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٢-٣).

إن القوم كانوا محتاجين للهدي الرباني، وللدور الرسالي، وللتوجيه النبوي لذلك جاءهم البلاغ مع رسول من مجتمعهم يعرف لغتهم، ويحيط علماً بكل خصوصياتهم، وكان دوره ﷺ أن يبلغهم الإسلام، وأن يصقل شخصياتهم تزكية وتأديباً وتطهيراً من أجل أن يرتقوا إلى مستوى أنقى سلوكاً وقولاً، وفي كل حركاتهم وسكناتهم. وهذا كله منطلقه كتاب الله تعالى، وبعد تلقيهم كتاب الله لا بد لهم من النظر العقلي وبذل الجهد بحثاً واكتشافاً وابتكاراً وتأليفاً واختراعاً، وكل هذه تنضوي تحت باب الحكمة، وإذا ما تمّ لهم ذلك يكون إسلامهم قد جبّ ما قبله، ويكونون قد تخلصوا مما كانوا عليه من جهل وسفه ورذائل. ولا ينتهي الدور الرسالي عند حدود من كان منهم رسول الله، وإنما المسيرة التبليغية متواصلة ومعها التعليم والحكمة والتزكية،

وبعد عهد النبوة تبقى المهمة في أتباع الإسلام إلى يوم الدين.

لكن كل ذلك احتاج إلى الثبات على المبدأ والالتزام الكامل بدين الحق مع استعداد للحوار والمناظرة، واعتماد أساليب متعددة وكلها مشروعة تحقيقاً للهدف.

وأول ما يذكر في إطار الثبات ذلك الموقف الذي واجه به رسول الله عمّه أبا طالب يوم جاءه يعرض عليه شكوى قريش المقرونة بإغراءات مقابل التخلي عن الدور الرسالي، والتكليف الإلهي. لقد "جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا له: إن ابن أخيك قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنه.

بعث أبو طالب للرسول ﷺ فقال له:

يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، وقالوا: كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عَن قومك ما يكرهون من قولك.

فظنّ رسول الله أن قد بدا لعمّه فيه، وأنّه خاذله ومسلّمه، وضعف عن القيام معه.

فقال رسول الله ﷺ: يا عمّ لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه"(١).

إن هذا الحوار مع أبي طالب إنما يأتي ليؤسس لقاعدة هي: التمسك بدين

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار الرائد العربي، ط٣، سنة ١٩٨٧، ص٤٦٣، ٤٦٤ .

الله من قبل المؤمن أيًّا كان الوعيد أو الإغراء، وأيًّا كان الثمن.

وبمقابل هذا الموقف الحاسم الذي لا مجال لمجرد البحث في مسألة الحوار المطروحة، نجد أن المهمة التبليغية تحتاج إلى الحلم ورحابة الصدر، وتحمل أسلوب خطاب السائل الذي جاء يتعرّف على الإَسلام وأركانه وشعائره.

وماجريات هذا النوع من الحوار التبليغي الدعوي والتعليمي نموذجها هذا الحوار الذي كان مع ضِمام بن ثعلبة. والواقعة هي: " قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن نويفعَ عن كُريب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضِمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه، فأناخ بعيره على باب المَسجد، فعقله، ثم دخل على رسول الله وهو جالس في أصحابه.

فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟

فقال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب.

فقال: محمد؟

فقال: نعم.

فقال: يا ابن عبد المطلب، إنّي سائلك ومغُلظ عليك بالمسألة، فلا تجدنّ نفسك.

فقال: لا أجد نفسي، فسلْ عمّا بدا لكَ.

فقال: أُنشدك الله إلهك، وإله أهلك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلَله بعثك إلينا رسولاً؟

قال: اللهم نعم.

قال: فأنشِدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله

آمرك أن نعبده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

فقال رسول الله: اللهم نعم.

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وفرائض الإسلام كلّها، يُنشده عند كل فريضة كما نشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال: فإنّي أشهد أَن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد وأُنقص، ثمّ انصرف راجعاً إلى بعيره "(١).

إن هذا الحوار يشكل منهجاً مهماً في عالم الدعوة، وفي الواقعة يدخل ضمام بن ثعلبة، ويسأل ليعرف من هو الرسول من بين المجتمعين، وذلك كي يعَرف إلى من يوجه أسئلته، وهذا ضروري في كل ملتقى ومجلس أن يتصدى للأمر من هو أهل له، كما كان الأمر عندما صمت الصحابة، وكان المحاور رسول الله ﷺ فقط.

وعندما تحدث ضمام بصراحة بأنه سيغلظ في أسئلته كان المبعوث رحمة للعالمين سريع الجوابَ: اسأل عمّا تريد ولا حرج، ولن أضيق ذرعاً بأسئلتك، وضمام الذي تحركت فيه الفطرة وجاء بحواره مستفسراً مستعلماً اهتدى إلى منهج تدرجي في أسئلته حيث أراد بداية أن يتحقق عن أمر بعثة رسول الله ﷺ بالإسلام، عندما سأل: آلله بعثك إلينا رسولاً؟ وإذا ما انتهى الجواب بنعم كان سؤالا عن العقيدة ورأس الأمر فيها التوحيد.

---

(١) ابن قيم الجوزية، سيرة خير العباد، إعداد صالح أحمد الشامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص٥٤١ .

فكان سؤاله: هل الله معبودك ومعبود الجميع من قبل ومن بعد هو الذي طالبنا بأن نهجر الأصنام، وأن نفرده سبحانه بالعبودية والعبادة والإسلام، وإذا كان بديهياً أن يكون الجواب: نعم. عند هذا الحدّ يكون ضمام قد عرف الإيمان بالله تعالى، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلّم رسولَ الله، فما كان منه إلا أن انتقل عن أركان الإسلام وشعائره مستعلماً عن الصلاة والزكاة والصيام وسائر الأمور الأساسية في الإسلام.

وبعد انتهاء الحوار كان منه ماهو متوقع، ألا وهو إعلان إسلامه. والجميل أن ضمام وعد بالالتزام بما أمره به الرسول، وأنه سيمتنع عن الإتيان بما نهى عنه؛ وأنَه سيكون عدلاً في التزامه الديني ؛ لا زيادة ولا نقصان؛ أي لا إفراط ولا تفريط، وهو ما يلحّ الدعاة على طرحه هذه الأيام تحت مصطلح الوسطية ؛ وهو هوية الأمة المسلمة التي لا مكان عند أهلها لغلو وتطرف أو لتحلل وتهاون.

ويستفاد كذلك لمنهج الحوار وأسسه من هذه الواقعة أسلوب الدقّة والاختصار الذي اعتمده رسول الله ﷺ في أجوبته لضمام حيث كان الجواب في كل مرة بليغاً، وإذا كان التبليغ يحتاج من الداعية أن يكون بليغاً ؛ فإن البلاغة التي ظهرت في هذا الحوار بلغت الحدود القصوى، وما البلاغة إلا الوصول إلى الغرض بأقل قدر من الكلام. إن هذا الأسلوب يحتاجه الدعاة مراعاة لإفهام من يحاورهم مستعلماً أو متعلماً أو مناظراً، والمعلوم أن من يكثر كلامه تكثر أخطاؤه، وبالتالي يكون الأسلوب الأفضل أن تكون الأجوبة والردود في المحاورات بالقدر الضروري دون تطويل مملّ، ولا إيجاز مخلٍّ.

وقد لفت إلى هذه القاعدة الإمام الجويني فقال: " ولا تعوّد نفسك

الإسهاب والجدال بالباطل، والمبادرة إلى كل ما سبق إليه الخاطر واللسان. حتى إذا أورد ما أورده فإن الكلام إذا طال واشتمل على الغثّ والسمين، مجّته الآذان، وملّته القلوب "(١).

وكان حوار يوم بدر الكبرى الذي أتى ليؤكد أهمية الشورى في إدارة الأمور، ولأن الشورى على هذا القدر من الأهمية من أجل الوصول إلى القرار السليم، والمواقف الراشدة، لذلك ورد ذكر الشورى في آيتين كريمتين واحدة في سورة آل عمران جاءت بصيغة الأمر ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (١٥٩)، وفي سورة حملت الاسم الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٣٨) ؛ ولا تكون الشورى إلا بأسلوب حواري يسبق اتخاذ القرار أقله أن تكون مراجعة يمارسها الشخص مع ذاته، وما في ذهنه أو - وهذا الأهم - تكون الشورى قبل واقعة وقرار، أو أمام حدث ما بين القائدة ومن حوله من أجل الاستفادة من المعارف والخبرات والتجارب في مسار الأحداث وفي اتخاذ القرارات الملائمة.

كانت وقعة بدر أول معركة خاضها رسول الله مع صحابته الكريم ضد المشركين، ولكن ذلك لم يكن ليجعل حالة انفعال تسود، بل كانت الشورى في أكثر من محطة في المعركة، وفي هذه تعليم لأتباع الإسلام على مر الأزمنة.

التشاور والحوار الأول كان قبل الخروج، وبعد أن علم رسول الله ﷺ بمسير قريش بعد اجتماعها، وكان الغرض من الحوار معرفة ردود المهاجرين بشأن قتال قومهم للمرة الأولى، وسماع ردود الأنصار لأنه لم يرد في عقد

---

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣ .

المبايعة والنصرة موضوع القتال ضد مشركي قريش، وما في العقد والعهد هو الحماية والدفاع وليس فيه من بند بشأن الخروج والقتال. ويفيد ترك سرد الوقائع لابن هشام في "السيرة النبوية" حيث جاء عنده في هذا الموضوع:

"وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم؛ فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثمّ قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امْضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمّتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه في المدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم.

---

(١) بَرْك الغماد: موضوع قديم بين قلي والقنفذة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وكان يسمى برك الغماد، وهو اليوم مَرفأ ساحلي جنوب مكة على قرابة ٦٠٠ كيل، ووصفه ياقوت بقوله: موضعٌ وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر. (موسوعة السيرة النبوية الشريفة، دار النفائس، بيروت).

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل؛

قال: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السّمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبر في الحرب، صُدُق في اللقاء. لعل الله يُريك منّا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك؛

ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم "(١).

هذا الحوار النبوي مع المهاجرين والأنصار إنما أراد حشد القوى للمعركة، وهذه مسألة من القواعد الاستراتيجية المهمة يضاف إلى ذلك التأكد من درجة التعبئة، ومن ثم درجة الاستعداد للتضحية وكل ذلك مهم في خوض المعارك والحروب، وأخيراً أن يصدر الموقف عمّن ستكون بلدهم قاعدة للمعركة، وبعد هذا الحوار كان القرار، وهذا المنهج الحواري النبوي يحتاجه أي قائد أيّاً كانت درجة مسؤوليته قبل الإقدام على أية خطوة نوعية ومفصلية.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص٢٦٦، ٢٦٧ .

صدر القرار، وتحرك رسول الله ﷺ مع صحبه إلى موقع المواجهة، ونترك لابن هشام ليعرض لنا مسألة أخرى من محطات بدر رافقها حوار نبوي دار حول أمر دنيوي يتعلق بالخبرة العسكرية، وفي هذا لا بأس أن يكون الحوار، وأن تكون المراجعة إلى حد التراجع عن خطوة بيّن أحدهم أثناء الحوار أن هناك خطوة أجدى منها لو اعتمدت.

جاء عند ابن هشام: "فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن رجال من بني سلمة، أنهم ذكروا:

إن الحباب بن المنذر بن الجموح (الأنصاري) قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن تتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؛

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوّر[١] ما وراءه من القُلُب[٢]، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛

فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي . فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوّرت،

---

(١) نغوّر: غار الماء: ذهب في الأرض وسفل فيها.

(٢) القُلُب: المفرد: قليب: البئر. وقيل: العادية القديمة منها مطوية كانت أم غير مطوية سميت بها لأنها قليت الأرض بالحفر.

وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فمُلِئَ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية "(١).

إن خلاصات هذا الحديث النبوي ما يلي:

١- كل حوار يحتاج بداية أن ننظر في موضوعه فإن كان وحياً؛ أي شريعة فلا مجال للمراجعة، وإذا كان في أمر من الرأي فلا بد عندها من الاستفادة بعد الحوار بالرأي الأقرب الى الصواب، والذي يتوقع أن تكون نتائجه أفضل.

٢- لا يصحّ لمحاور أن يستصغر شأن من يحاوره أياً كان التفاوت بينهما في الموقع لأن هذا المحاور قد يكون عنده من الموهبة والإمكانات ما يجعل منه فائدة كبيرة، وعلى أساس هذه القاعدة أعطى الرسول ﷺ، وهو من هو في المكانة الفرصة للصحابي الشاب الحباب بن المنذر الأنصاري أن يراجعه ومن ثم أخذ برأيه.

وقد وضع الإمام الجويني في قواعد آداب الجدل ما يفيد مثل هذا حيث قال: "وإيّاك واستصغار من تناظره والاستهزاء به -كائناً ما كان- لأن خصمك إن كان من المفترض عليك في الدين مناظرته؛ فهو نظيرك- ولا يجمل بك إلا مناظرة النظير للنظير "(٢).

٣- إن ما قام به رسول الله ﷺ لجهة قبول الرأي الناصح للحباب بن المنذر يأتي لينشر ثقافة تقرّ بالفضل لأهله، وبالأخذ بالرأي الحكيم أياً كان الشخص الذي أدلى به، وهذا المنهج هو الذي يقطع الطريق على المكابرة التي تتمثل في المعاندة بالباطل ليدحضوا به الحق.

لقد كان للحوار النبوي في بدر دروساً عديدة، وقد قالت بذلك "موسوعة

---

(١) إبن هشام، م.س.، ص٢٧٢ .

(٢) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣١ .

السيرة النبوية الشريفة "[١] في خلاصاتها حول وقعة بدر، ومن ذلك:

- أهمية الشورى، وقد ضرب الرسول ﷺ بنفسه مثلاً لجميع القادة، وعلى مرّ العصور، في ضرورتها، وأهميتها، ولا أظنه، وهو النبي المرسل، كان لا يدرك مكانته عند المهاجرين والأنصار، أو كان يشكّ في طاعتهم له إن كان قراره القتال أو الانسحاب، ومع ذلك جمعهم وشاورهم، وأشعرهم بأن القرار قرارهم.

- كذلك ضرب مثلاً في أخذه برأي الحباب بن المنذر وتغيير مكان نزول جيشه، ولم يجد في ذلك غضاضة أمام صحابته، وأظنه في تصرفه كان يعطي درساً أيضاً إلى جميع القادة، ويوجههم إلى استشارة أهل الخبرة والمعرفة في أي أمر يقدمون عليه".

ويأتي في أنواع الحوار النبوي بعض ما رافق اتفاق[٢] الحديبية (صلح

---

(١) موسوعة السيرة النبوية الشريفة، جماعة من المختصين، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص١٤٩.

(٢) اتفاق الحديبية: قال بذلك أحمد راتب عرموش في كتاب: "قيادة الرسول السياسية والعسكرية" الصادر عن دار النفائس ببيروت، وقد قال: "سميته اتفاقاً لأن الهدنة، لغة، كما جاء في لسان العرب: السكون بعد الهيج، ويقال للصلح بعد القتال هدنة، وربما جُعلت للهدنة مدة معلومة، وهي في المصطلح الحديث: وقف الحرب إلى حين. وغالباً ما تكون بانتظار التوصل إلى تسوية محددة بين الطرفين المتنازعين وتوقيع معاهدة الصلح. بينما الصلح هو إنهاء لحالة الحرب بشكل كامل، بحيث السلام وكان القتال والعداء.
ولذلك فإن (صلح الحديبية) هو في واقعه هدنة، بالمفهوم الحديث للهدنة، لأنه كان ينص على إيقاف القتال والأعمال العدائية بين الطرفين مدة محددة. وقد درجت كتب السيرة على تسميته صلحاً آخذة بالمعنى اللغوي الواحد للكلمة. وقد كان عمر رضي الله عنه أكثر دقة في قسميته ذلك الصلح هدنة حين قال: "فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم الحديبية. وقد فضلت تسميته اتفاقاً كيلا تكون التسمية ذريعة لدعاة الصلح مع العدو مستندين على سابقة صلح الحديبية الذي كان في اللفظ صلحاً وفي المضمون هدنة. (ص٨٩).

الحديبية) والتي كانت هدنة إلى حين حقن فيها رسول الله ﷺ الدماء ليكون بعدها الفتح بعد عامين دون قتال ولاإراقة دم. وكانت الهدنة إجراءً لا يعني التراجع عن الهدف ألا وهو دخول مكة المكرمة ليظهر الإسلام في رحاب الكعبة، ويلغي كل مظهر شركي.

إن قريشاً عندما وجدت رسول الله قد حشد لها، وهي لا تريد أن يدخل مكة المكرمة عنوة ورغماً عنهم كي لا يحطّ ذلك من شأنهم بين القبائل، وأرسلوا إلى رسول الله سهيل بن عمرو، وأمروه أن يصالح محمداً ﷺ على عهد يؤجل الدخول إلى مكة هذه المرة، وأن يتعهد كلا الفريقين بعدم قبول كل من يلجأ من صف فريق إلى الفريق الآخر.

بعد حوار وأخذ وردّ كانت الوقائع حسب ما ذكر ابن هشام: " فلما التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى،

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال:بلى،

قال: علام نعطي الدّنية (الذل) في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه (التزم أمره) فإنّي أشهد أنه رسول اللهﷺ.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟

قال: بلى،

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى،

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى،

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

قال: فكان عمر يقول: "مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم،

قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن أكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ: أكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: أكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك،

قال: فقال رسول الله ﷺ أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمر فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض"(١).

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية م٣، ص ٣٣١، ٣٣٢.

إن الحوار يوم الحديبية جاء يقدم عدة أمور مستفادة لأسس الحوار من المصدر النبوي منها:

١- لقد أوفدت قريش سهيل بن عمرو، وهي لا تزال على الشرك، إلى رسول الله ﷺ تعرض الهدنة وفق أسس معينة، وقد وافق رسول الله على ذلك من أجل مزيد من الإعداد والاستعداد لدخول مكة المكرمة.

٢- إن الحوار جاء مع كل الأصناف أياً كان الانتماء العقدي للفريق الآخر.

٣- عند الحوار مع الخصم لا مانع من مراعاة ما هو عليه إذا كان لا يغير من الحقيقة شيئاً كأن يقال: "باسمك اللهم"، أو أن يكتب اسم رسول الله ﷺ مع اسم أبيه.

٤- إن الحوار جائز إذا كان يراعي مشاعر الخصم بما لا يضر بالقضية وفي هذه الواقعة فإن قريشاً كانت ترغب أن لا يدخل رسول الله ﷺ وصحبه عنوةً إلى مكة فقبل رسول الله ﷺ هذا التمني.

٥- إن حواراً يمهد لهدنة مؤقتة لا مانع منه، ولهذا يكون الأفضل أن يسمى اتفاق الحديبية وليس صلح الحديبية.

٦- لقد خلص الحوار إلى الإتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات، وكانت الحديبية عام ٦هـ، ولكن توافر معادلة في موازين القوى جعلت نقض هذه الهدنة بعد عامين حيث كان فتح مكة المكرمة عام ٨هـ، وهذا يؤسس لقاعدة هي: إن أية هدنة أو اتفاقية وقف قتال إنما هي مقبولة ما دامت موازين القوى مختلة، وساعة تسمح القدرات بتحقيق الأهداف فلا تكون هدنة.

ويأتي فتح مكة المكرمة عام ٨هـ حيث أطلت حشود المؤمنين بقيادة رسول الله ﷺ على مشارف مكة المكرمة، فانهارت الروح المعنوية عند مشركي قريش، وتعطلت إرادة القتال عندهم، وكان فتح مكة المكرمة دون قتال.

حصل ساعة فتح مكة المكرمة حواران: الأول بين العباس بن عبدالمطلب وأبي سفيان، والثاني بين رسول الله ﷺ وأهل قريش. عندما شاهد أبو سفيان حشود الصحابة، وهم في أعلى درجات الاستعداد قال أبو سفيان: "سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟"

قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار؛

قال: ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً؛

قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة.

قال: فنعم إذن"(١).

لقد أوصل هذا الحوار أبا سفيان إلى التسليم بنبوة محمد ﷺ بعد أن كان هو من يدير الحرب ضد الإسلام ورسوله، وما كان ذلك لولا أن العباس قد حاور، والحق الذي يعمله مستند إلى حشد المؤمنين الذي جعل أبا سفيان يقر بالهزيمة. وهذا ينبه إلى أن صاحب الحق لا بدّ له من القوة الهادفة لا القوة الغاشمة، والقاعدة هي: "الحق بغير القوة ضائع."

اما الحوار الثاني فهو عندما استسلمت قريش خاطبهم رسول الله،كان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، م ٤، م.س، ص ٤٧ .

الحوار على الشكل التالي:

" قال: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم،

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم)(١) إذهبوا فأنتم الطلقاء..... "(٢).

هذا الحوار أسّس لقاعدة جديدة في أمر الحوار ونتائجه، إنه العفو عند المقدرة، أو بلغة العصر التسامح. إن الحوار النبوي مقصده استقطاب أهل قريش إلى الإسلام، وذلك لن يكون بغير الأسلوب الحسن الذي يؤلف القلوب، ولو اعتمدت القسوة لاستمر النفور والاقتتال، لكن القول: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " جعلهم يشهدون لرسول الله ﷺ بالنبوة، وهذا يؤسس للدعاة منهجاً هو الابتعاد عن الثأر والانتقام مادام الهدف قد تحقق. ولو تُرك الأمر لينتقم المسلمون المهاجرون ممن آذاهم وهجرهم وصادر أملاكهم لما عمّ الإسلام مكة بهذه السرعة.

إنه السلوك القائم على الرحمة والموعظة الحسنة بعد إظهار القوة هو الذي حقق هذه النتائج. ومما يؤكد ذلك حوار جرت وقائعه عند دخول مكة المكرمة عندما وجه رسول الله ﷺ جيشه على مواقع وكان أن سعد بن عبادة قال يومها: " اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة؛ فسمعها رجل من المهاجرين. قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب. فقال: يا رسول الله؛

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢ .

(٢) ابن قيم الجوزية، م.س.، ص ٣٣٣ .

' سمعت ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون في قريش صولة.

فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه، فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها "(١).

وخاطب رسول الله بعد هذا الإجراء جيشه قائلاً : "اليوم يوم المرحمة، فأنا نبي المرحمة ولست نبي الملحمة. "

إن وقائع فتح مكة المكرمة حصلت أثناءه حوارات حوت الكثير من الدروس والعبر التي تشكل أسساً مهمة للحوار وذلك بعد توافر مقومات الحوار، وإذا كان القصد أخذ العبرة للواقع المعاصر فإن الحوار من موقع المناظرة على أساس الندّية من الآخرين يحتاج من العرب والمسلمين أن يمتلكوا أسباب القوة بكل أشكالها كي يستطيعوا رفع الظلم عنهم وإزاحة العوائق من طريق الدعوة.

لقد أثمر فتح مكة الثمرة التالية: "ظهور المسلمين قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعده فتح مكة، وتحقق أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، برزت قوة كبرى في الجزيرة العربية، لا يستطيع أيّ تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثمّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله؛ كي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه. "(٢).

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية،م٤، م.س.، ص ٤٩ .

(٢) عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، بيروت، دار النفائس، ط٣، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٢٩ .

إن الخلاصة التي ينتهي إليها البحث تأصيلاً للحوار من مجريات السنة النبوية الشريفة بدءاً من الحوار الأول لحظة الضعف الذي كان بين رسول الله ﷺ وعمه أبي طالب وصولاً إلى ظهور الإسلام وتطهير الكعبة بيت الله الحرام من الأوثان ومظاهر الشّرك، إنما هي أن الحوارات مع الآخرين تحتاج من المسلمين إلى الأمور التالية:

١- تحديد المقاصد من أي حوار، والثبات على الأساسيات دونما استعداد للتراجع أو المسايرة في أمور العقيدة والشريعة والمقدسات.

٢- العمل على امتلاك القدرات الكافية لحماية الدعوة لأن أي حوار وأية مناظرة مع الضعف إنما سيكون مردودها سلبي.

٣- الجنوح إلى العفو والتسامح لكن بعد الظهور وتحقيق الانتصار؛ لأن المهزوم والضعيف لا يحترمه أحد.

٤- لقد قاد الحوارات في مراحلها كافة رسول الله ﷺ فكانت وحدة المنهج، ووحدة القيادة، ووحدة الجهة التي تحاور باسم الإسلام مما أوصل إلى النتائج المأمونة، أما تشتت القرار وتعدد الرؤى، والتسابق إلى الحوار مع الآخرين مع الضعف فكل ذلك لن يجدي نفعاً، ولن يحقق استقراراً في العلاقات، ولا طائل من ورائه.

أسس وقواعد الحوار:

إن الحوار ضرورة تقتضيها الفطرة البشرية، والحاجات الاجتماعية لصياغة نسيج لشبكة علاقات لا يمكنها أن تستقر إلا بالحوار والتفاهم بين عناصر هذه الشبكة. وما يتعلق بالحوار في السياق الذي يتمّ الالحاح عليه هذه الأيام؛ فإن هذا الحوار ضروري كذلك، والإسلام يقرّه شريعة وفقهاً، وللحوار قواعده الأصلية في كتاب الله، وفي سنة رسول الله، لكن هذا الحوار يحتاج إلى قواعد وآداب، كما يحتاج لأسس وقواعد، والأسس المستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي:

١- إن الحوار ليس نوعاً واحداً، وما يحدد نوع الحوار هو المراد منه وعلى مستوى المصطلح الإسلامي يمكن تحديد ثلاثة أنواع من الحوار:

أ- الجدل: وهو الحوار الدعوي الذي لا مجال فيه للتراجع والمراجعة، وإنما هو حوار تبليغي يحمل فيه المسلم الدعوة لدين الله، وكما أمر الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الجدل الذي يعمد إليه بعضهم ليدحض الحق وينصر الباطل فهو مكابرة وفساد في الرأي لا يقبله الإسلام.

ب- المناظرة: وهي الحوار بمقابلة الرأي بالرأي، والغرض هو جلاء الحقيقة ويقرها الإسلام ولها نماذج في القرآن والسنة، والمناظرات فيها ما يكون بين علماء الإسلام وفقهائه؛ ومن المناظرات ما تكون مع أتباع العقائد والشرائع الأخرى حتى لو كان من أهل الشرك، ومن نماذج ذلك الحوار مناظرة إبراهيم عليه السلام مع المشرك الذي يقال إنه النمرود، والذي بُهِت عندما أعطاه

حجة لا يمكنه الرد عليها تتعلق بحركة الأرض وشروق الشمس وغروبها.

ج- الحوار: ويكون الحوار الذي هو المجاوبة والأخذ والرد، وهو أمر أجازه الإسلام في الأمور التي تستند إلى الحكمة والنظر العقلي، وإلى المعارف البشرية وإلى الخبرات والمواهب. لكن لا حوار في المسائل العقدية أو في الثوابت الشرعية والأحكام المنصوص عليها. ونموذج الحوار الذي يقره الإسلام ما كان يوم بدر حيث استجاب رسول الله ﷺ للحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري لجهة تغيير المواقع ما دام الأمر هو الرأي والمكيدة والحرب، أما لو كان الأمر وحياً فإنه لا مجال للحوار أو للتعديل والتبديل.

والحوارات التي يمكن أن تقوم عبر هذا النوع ما يلي:

١- حوار بين أطراف ومجموعات في مجتمع واحد بغرض ترسيخ القيم والمثل، ومقاومة المفاسد والرذائل ما دام الجميع يؤمن بهذه القيم ويدعو لها. ومن النماذج المعاصرة ما كان عام ١٩٩٤ عندما عُقد مؤتمر السكان في القاهرة، وبعده في العام ١٩٩٥ عندما عُقد مؤتمر المرأة في بكين حيث التقت المرجعيات الإسلامية والمرجعيات المسيحية عالمياً على رفض ما دعا إليه هذان المؤتمران في وثائقهما من أشكال الاستباحة للحرمات خاصة الروابط الأسرية.

٢- حوار لمعالجة الظلم والعدوان من أجل نشر العدل وإحقاق الحق، ولأن الله تعالى يأمر بالعدل وينهى عن الظلم؛ فإن الحوار بهذا الشأن مقبول إسلامياً؛ طالما أنه يحقق هذا المقصد، والمصدر أو الأساس لهذا النوع من الحوارات المقبولة ما قاله رسول الله ﷺ بشأن حلف الفضول الذي كان قد

حصل قبل بعثة رسول الله، وقبل بدء مسيرة الإسلام، والذي قال فيه عليه الصلاة والسلام بأنه لو دُعِي إليه بعد الإسلام للبّى الدعوة؛ وذلك لأنه حلف يحفظ كرامة الإنسان ويمنع الظلم ، وهما مقصدان في الإسلام.

٣- حوار التعاقد الاجتماعي أو المصلحي وهذا أمر يحمل أمر الإقرار بالمجتمع المتنوع، وفي النص القرآني أن الله تعالى قد خلق الناس ووزعهم شعوباً وقبائل، ونموذج ذلك في السنة النبوية "الصحيفة" في المدينة بين المسلمين أنصاراً ومهاجرين وغير المسلمين برعاية رسول الله ﷺ وتعدّ الصحيفة ميثاقاً وطنياً تعاقدياً سبق كل مواثيق العالم.

أما قواعد الحوار وآدابه فلها كذلك أسس تتوزع على الشكل التالي:

١- تحديد موضوع أو موضوعات الحوار؛ أو ما يسمى تحرير محل الحوار، أو تحرير محل النزاع، وذلك بتشخيص موضوع الحوار وتحديد أبعاده وإذا ما كانت دينية أم عقلية أم علمية أم اجتماعية قيمية، لأن الحوار إذا كان في موضوعين مختلفين أو أكثر يصبح مضيعة للوقت، ويكون عقيماً لا جدوى منه.

" لا بد لكل من طرفي الحوار، من التعرف إلى الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها ونفيها لأن الجهل بها وبتفاصيلها، يحوّل الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم والمهاترات التي يغطّي فيها كل منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاً منهما واعياً لما يُطرح من فكر، ولما يُستَقبل من فكر، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار، وكيف يخوض فيه، وكيف ينتهي منه، في وضوح الرؤية، وهدوء الفكر،

وقوة الحجة، ووداعة الكلمة "(١).

٢- العلم؛ إن الحوار المجدي نفعاً هو ذلك الذي يشترك فيه أشخاص يتمتعون بقدر من المعرفة بالموضوعات التي هي محل الحوار وقد نبه القرآن الكريم إلى مخاطر الجدال والحوار بغير علم فذلك يقود إلى مواقع شيطانية وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج: ٣).

وعند كل حوار علينا أن نطالب أي طرف إلى بيان مدعوم بالحجة والبرهان ولا تفيد في الحوار المواقف الانفعالية التي لا قواعد لها ولا أسس.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

والمعرفة وقوة الحجة من أسس الحوار الناجح الذي يظهر الحقيقة ويفحم الخصم. هذا مع الحرص على حصر الطرح بالموضوع وبالمقصود من الحوار. قال أبو الوليد الباجي: "ولا يتكلم على ما لم يقع له العلم به من جهته، ولا يتكلم إلاّ على المقصود من كلامه، ولا يتعرض لما لا يقصده مما جرى في خلاله، فإن الكلام على ما لم يقصده عدول عن الغرض المطلوب؛ ولا يستدل إلاّ بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته، لأنه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه، ويتبين انقطاعه، ويجتهد في الاختصار، فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار "(٢).

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين، م.س.، ص٥٠ .

(٢) الباجي، أبو الوليد م.س.، ص١٠ .

وهذا يفيد بأن العلم أساس للحوار، وأن لا يتدخل المحاور في أي أمر لا خبرة له فيه، ولا أن يسهب بالكلام، والتوجيه الرباني: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦). "

٣- الموضوعية؛ والمقصود بها أن يكون رائد المحاور الوصول الى الحقيقة دونما تعصب أو جمود، بل موضوعية تعني أن يبدأ الحوار مع الإقرار بوجود الخصم ووضع احتمال ولو بسيط أن الحق قد يكون معه، والموضوعية تقتضي أن يقبل أهل الحوار الحقيقة وأن يقصوا الباطل والضلال بصرف النظر عمّن سيكون مصدره من الأطراف. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ٢٤)، وهذا أسلوب مفيد في استقطاب الخصام حالَ بيان الحقيقة له. أما إذا تمت مخاطبته مع استهتار به، ومن منطلق وصفه بأنه على الباطل فإنه سينفر ويصعب استقطابه.

٤- الانطلاق في الحوار من نقاط اللقاء والتفاهم؛ لأن ذلك يجعل النفوس في حالة القبول لما سيطرحه الطرف الآخر ما دامت الاهتمامات مشتركة. ولا يصح أن يستحضر حشداً من نقاط التناقص والخلاف ثمّ يقعد لمحاورة خصمه فإن مثل هذا الحوار سيسوده الانفعال والتشنج، وستقوى خلاله حالة التعصب ولن يكون بعده الوصول إلى شيء. والمصدر في هذا قرآني حيث جاء في كتاب الله شكل من الخطاب انطلق من عقيدة التوحيد؛ إذ كل الأنبياء إنما جاءوا يدعون لها.

ومن نماذج ذلك الخطاب القرآني بلسان المؤمنين في مخاطبة المسيحيين،

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ٦٤).

٥- البلاغة في القول؛ ويقصد بذلك استخدام أساليب التعبير المناسبة، والتي توصل الرسالة التي يريدها المرسل أن تصل إلى المتلقي أثناء حواره معه، وهذا يقتضي عدم استخدام مفردات أو جمل ملتبسة الدلالات والمعاني، هذا مع ضبط المصطلح وتحديد المفاهيم، يضاف إلى ذلك الاقتصاد في التعبير والكلام دون إيجاز يخل بالمعنى والقصد، ولا أن يذهب المحاور إلى تطويل يجلب الملل وكثرة الأخطاء.

وقد نبه الجويني إلى ذلك قائلاً: "ولا تورد في كل موضع من الكلام إلا قدر ما يحتاج إليه. وهو نصيحة المشايخ - يقولون لأصحابهم- اتفقوا في المناظرات، وإنما قيل ذلك، لأنه ربما تورد ها هنا كلاماً لا تحتاج إليه فيفسده الخصم عليك؛ لأنه في غير موضعه فيصعب عليك العود إليه في موضع الحاجة"(١).

وقال فخر الدين الرازي بشأن هذا الموضوع في شروط المناظرة والحوار:

١- إنه يجب على المناظر أن يحترز عن الاختصار في الكلام، كي لا يخلّ بالفهم.

٢- أن يحترز عن التطويل لئلا يؤدي إلى الإخلال.

٣- أن لا يستعمل الألفاظ الغريبة.

٤- أن لا يستعمل الجمل المحتملة للمعنيين بلا قرينة معينة"(٢).

٥- الكلمة الطيّبة؛ فالكلمة الطيّبة تؤلّف، وتطيّب النفوس مما يفسح المجال

---

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٢٦، ٥٢٧ .

(٢) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠١، ١٠٢ .

في الوصول إلى الجوامع المشتركة بين المتحاورين، كما أن الكلمة الطيبة تفعل فعلها في المستمعين ، وليست فيما يكون معه الحوار بينما الكلمة الخبيثة المنفعلة تولّد النفور والتشاحن، وتحول الحوار إلى شكل من أشكال المهاترات، ويسود الانفعال والغضب مما يعطل الحوار، أو يجعله عديم الفائدة.

وما جاء في سورة إبراهيم في النص القرآني يكفي بياناً وقواعد للحوار والمناظرة ولكل كلام أو قول، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦)، وفي آية أخرى من سورة فاطر قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

٧- الأدب؛ وهو أساس يحفظ الوقار والهيبة، ويمنع الحطّ من شأن المجلس والمتحاورين، وقد نبه الإمام الجويني إلى ذلك فقال: "وأحسن شيء في الجدال: المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل؛ فإن الأدب في كل شيء حليته. فالأدب في الجدل يزيّن صاحبه، وترك الأدب فيه يزري به ويشينه. ومعظم الأدب في كل صناعة: استعمال ما يختصّ بها، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها"(١).

وآداب الحوار والمناظرة تشمل جوانب كثيرة من الجلوس بوقار والتواضع إلى المتحدث دون رفع الصوت أو الهزء والسخرية إلى غير ذلك من الآداب،

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣٨ .

ويترك البحث لبعض من سبقوا إلى الحديث في هذا الموضوع ليقولوا في آداب المناظرة والحوار:

- أن لا يضحك ولا يرفع الصوت، ولا يتكلم بكلام السفهاء عند المناظرة، لأنها من صفات الجهال ووظائفهم، لأنهم يسترون بها جهلهم "(١).

- ويتوقّر في جلوسه، ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الرّكّة والخرق، ولا يعبث بيده ولحيته، فإن ذلك يذهب بالوقار، ولا يكثر الصياحَ حتّى يشقّ على نفسه لأن ذلك يقطعه وينسب منه إلى الضجر، ولا يخفي صوته جداً فينسب منه إلى ضعف المنّة، وكان بين ذلك قواماً، ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله، فإن ذلك يدعو إلى المقت "(٢).

وقد جاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

وعند الإمام الجويني: "ويحذر من رفع الصوت جهراً زائداً على مقدار الحاجة، فإنه يورث الحدّة والضجر "(٣).

٨- التوازن والارتياح؛ ويقصد بهما أن يدخل الشخص إلى جلسات الحوار والمناظرة، وهو في حالة من الاستقرار النفسي بعيداً من الانفعال الذي تسببه حالة من فقدان التوازن بسبب نقص وحاجة عضوية فيزيولوجية، أو حالة نفسية كالخوف أو الاضطراب، أو الشعور بالدونية أمام شخص ما أو موقف ما.

---

(١) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠٢ .
(٢) الباجي، أبو الوليد، م.س.، ص٩ .
(٣) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٢٩ .

قال الباجي في هذه القاعدة: "ولا يناظر في حال الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب، ولا في حال يتغيّر فيها عن طبعه، ولا يتكلّم في مجلس تأخذه فيه هيبة ولا بحضرة من يزري بكلامه، لأن ذلك كلّه يشغل الخاطر ويقطع المادة؛ ولا يناظر مَنْ لا ينصف من نفسه، ولا مَنْ عادته التسفّه في الكلام ولا من عادته التفظيع، فإنه لا يستفيد بكلامه فائدة"(١).

إن الشخص المتوازن في طرحه وأساليب حواره هو من يستطيع التأثير وبلوغ المراد من قبله أما المضطرب والمرتبك والمتردد فإنه لا يقوى على حوار سليم ولا مناظرة ذات جدوى.

٩- احترام الخصم وعدم احتقاره؛ فهذا أمر منهي عنه لأن من يبدأ مع غيره بتحقير أو شتم عليه أن يتوقع أن الآخر سيبادله الكلام نفسه، وهذا الأمر سيؤدي إلى مهاترات وسباب قد يطاول بعضها الذات الإلهية، أو النيل من الشريعة، أو الذهاب بالحوار إلى مواقع غير أخلاقية، لذلك يجب في الحوار المحافظة على رصانته كيفما كانت الأجواء والمناخات. حتى لو حصلت إساءات كمثل ما جرى في الصحف الدانمركية مؤخراً، أو سواها، وفي احتضان بريطانيا لسلمان رشدي وأمثاله؛ ممن طرحوا أباطيل ضد الإسلام، أو كحالة فرنسا التي أصدرت قانوناً في شباط \فبراير ٢٠٠٤ يمنع الحجاب على المسلمات في المؤسسات التعليمية، أو ما يقوم به القساوسة المتصهينون في الولايات المتحدة الأمريكية من نيل مؤذ لرسول الله وللإسلام، ومن هؤلاء جيري فالويل (مات في ربيع ٢٠٠٧)، و بات روبرتسون في تلفزيونه المسمى: فوكس نيوز خلال برنامج

(١) الباجي، أبو الوليد، م.س.، ص١٠ .

يسمونه "نادي ٧٠٠" "Club 700".

رغم كل ذلك فإن الإسلام يطالبنا أن نبقى على توازننا في الحوار، وأن لا ننحدر بمستوى الحوار إلى ما لا يتناسب مع سمو الإسلام الذي يؤكد على الحكمة والخلق في الحوار حتى لو انحط الخصم بمستوى كلامه فإنه صفة المتكلم. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

وقد قال فخر الدين الرازي بشأن آداب المناظرة والحوار موجهاً: "أن لا يحسب الخصم حقيراً، لئلا يصدر عنه بسببه كلام ضعيف، وبذلك يغلب عليه الخصم الضعيف"(١).

وقد قال الإمام الجويني: "وعليك المحافظة على قدرك وقدر خصمك وإنزال كل أحد في وجه كلامك معه"(٢).

وقال الإمام الجويني: "ولا يستحقر أحدهما صاحبه بما يقع له من الخطأ في مذهب أو دلالة أو غير ذلك؛ فإنه إذا اغترّ بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه. واستحقار الخصم كاستحقار يسيرٍ من النار؛ فإنه ينتشر من يسيرها ما يحترق به كثير من الدنيا"(٣).

---

(١) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠٢ .
(٢) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣١ .
(٣) المصدر السابق، م.س.، ص ٥٤١ .

١٠- إن الحوار بين المسلمين على تنوع مذاهبهم، وبين المسلمين وغيرهم المسلمين من أجل عيش كريم على المستويات الوطنية والقومية، أو على المستوى العالمي يحتاج أن يكون موضوعه القيم الناظمة للعلاقات بين الناس وكل ما يؤسس لحياة مستقرة قوامها العدل واحترام كرامة الإنسان، ووقف الظلم والعدوان والتجاوزات أو اغتصاب الحقوق كل هذه الأمور هي التي تؤسس لعلاقات سليمة.

أما في الجانب العقدي فبعد أن ينتهي الدور الدعوي يكون الحوار من أجل التأسيس لعيش وطني ميثاقي كما كان في المدينة المنورة خلال "الصحيفة"، وأما بالشأن العقدي فإن الأمر بعد التبليغ والقيام بالواجب من قبل المسلم يترك لله سبحانه وتعالى، وفي الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧).

ولا يخفى على أحد بأن الأمر العقدي لا مجال للتلاقي فيه بل القاعدة فيه بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، وبذلك يصل البحث إلى التقرير مجدداً بأن القول: "حوار الأديان" إنما هو تعبير خاطيء وغير سليم فلا مكان لحوار الأديان ولا العقائد، والصحيح أن يقال: "الحوار بين أتباع الأديان."

١١- إن الحوار من الموقع الإسلامي له مقصد رئيس، هو نشر الرحمة التي بُعث من أجلها رسول الله، وهذه الرحمة ليست موجهة لأتباع الإسلام فحسب، وإنما الرحمة التي يؤيدها الإسلام إنما هي للبشر جميعاً، لا بل

للكائنات كلها، وكل ظلم وجور مرفوض إسلامياً، وهذه القاعدة نطالب المسلمين أن يلتزموها، ونطالب غير المسلمين أن يتفهموها.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والرحمة كما أكدها الحديث النبوي ليست خاصة، وإنما رحمة تشمل عامة أهل المجتمع، وفي حديث نبوي حواري يؤكد ذلك فيه: ((لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة)) (١).

وتصل الرحمة إلى مستوى رعاية الحيوان، ومعاقبة من يظلمه، ومن نماذج ما ورد في الحديث النبوي بشأن المرأة التي عُذِّبت بهرتها، وعندما سئل رسول الله عن السبب، أجاب ﷺ ((إنها حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض)).

١٢- إن الحوار ضمن القواعد المعتمدة وعلى أسس سليمة من ثوابت القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أمر ضروري شرط توافر آداب تضبط مساره، وإذا كان الحوار ضرورياً؛ فإنه لا يصح أن يكون الحوار متروكاً للمبادرات الفردية، ولأصحاب المصالح والأهواء، ولا للمنفعلين تفريطاً وإفراطاً، وإنما يحتاج الحوار إلى تكوين مؤسسات لها مقاصدها ومكوناتها وضوابطها وهيكليتها لتلعب هذا الدور، وأن يشترك في هذه الحوارات من خلال المؤسسات المتخصصة علماء على دراية وقدر من العلم والخبرة؛ أي أن يُسند الأمر لأهله، وبالنسبة للمسلمين يحتاج الأمر إلى مؤسسات تضع رؤية

(١) رواه الطبراني، ورواته رواة الصحيح.

واضحة المفاهيم والمصطلحات وتتعامل مع الآخرين من موقع النّدّيّة مع الاتجاه الإيجابي المثمر.

كل هذا يكون في رحاب مؤسسات حوارية عندها قدرة على ضبط المسارات منعاً للتشويش والارتباكات، وانحراف المسارات إلى اتجاهات مؤذية.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩). تأسيساً على ما تقدم يكون ختام البحث بهذه الفقرة من "الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي" التي وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي تنص: "إذكاء الحس الأخلاقي الذي ينبع من الفطرة الإنسانية وتقوية الميول الإنسانية نحو تحقيق العدالة الاجتماعية، ونفي مظاهر الظلم والطغيان والتعدّي على حقوق الشعوب المستضعفة، وامتصاص خيراتها، وسلبها إرادتها الحرّة الفاعلة في صنع مستقبلها، واستثمار طاقاتها لمصالح ضيّقة"(١).

إن الحوار الذي يريده المسلمون هو حوار حضاري يهدف إلى إسعاد الإنسان المستخلف في الأرض، والذي يجلب النفع للجميع، والذي يستفيد الجميع من ثماره، وفي الحديث النبوي ما يؤسس لذلك، فالحديث: ((ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)) (٢).

---

(١) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكوا)، الرباط، ط٢، سنة ١٩٩٨، ص ٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة.